أعلام العرب

٨٠

الشيخ الأكبر

محيي الدين بن العربي

سلطان العارفين

تأليف

عبد الحفيظ فرغلي علي القرني

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

فرع مصر – ١٩٦٨

بسم الله الرحمن الرحيم

« ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيىء لنا من أمرنا رشدا »

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .
وبعد ،

فهذه سيرة كريمة لرجل من رجال التصوف الأفذاذ ، الذين تركوا ثروة ضخمة من الآثار والآراء والأذواق ، ضمنها عددا لا يكاد يحصى من كتبه التى عدت عليها عوادى الزمان ، فما ضاع يعد أضعافا مضاعفة لما بقى منها .

هى سيرة الصوفى المرسى العظيم ((محيى الدين بن العربى)) الذى عاش فى الفترة التى تجمع بين منتصف القرنين السادس والسابع الهجريين ، هذه الفترة التى كانت زاخرة بالأدب والتصوف ، فى بيئة من أخصب بلاد العالم الاسلامى رقة وذوقا وأدبا وتصوفا ، هى بيئة الأندلس ، التى على رباها نشأ عاهل التصوف العظيم ، ثم خطت قدماه تذرع البلاد شرقا وغربا ، بحثا عن المعرفة ، وارتيادا للحكمة .

هى سيرة ((ابن عربى)) الذى سطع نجمه فى أفق الثقافة الاسلامية الصوفية حيا وميتا ، ووجد من الأنصار والخصوم من يناصرون ويناوئون ، وشغل بآرائه وأفكاره العقول والأذهان ، وأثار ثائرة قوم واعجاب آخرين ، وظلت كتبه الى ذلك الوقت منبعا فياضا

وكنزا دفينا يهرع اليه طلاب المعرفة ورواد الثقافة وعشاق الروح ومحبو الفلسفة وجامعو الحكمة .

هى سيرة ذلك البطل الذى أطلق عليه عارفو فضله لقبين لهما دلالتهما العظيمة .

أما اللقب الأول فهو ((الشيخ الأكبر)) وهذا اللقب لم يطلق عليه الا بعد أن اجتمعت له أصول الرياسة ومقـــومات القيادة الروحية ، وتخرج على يديه الكثير من تلاميذه الذين كانوا يجتمعون حوله بالمئات فى كل مكان يحل فيه ، يتحلقون حوله ويستمعون الى محاضراته ، وينصتون الى آرائه وأذواقه فى شـــعره ونثره . فيجدون فى ذلك باسما شافيا لجراحهم ، وبعثا قويا لموات نفوسهم ، وحفزا صادقا لهممهم ، وارواء لظمأ أرواحهم . وكانوا هم عند حسن ظنه بما أفادوا من تعاليمه ، وساروا على طريقه واستجابوا لصادق نصـــحه ، فشفت نفوسهم ، واطمأنت قلوبهم ، وارتوت أرواحهم وانطلقوا يحلقون فى فضاء الروح .

ولقد وضع ((الشيخ الأكبر)) مناهج تتناول الصوفى فى جميع مراحل طريقه من لدن انبعاث الرغبة فى نفسه ، ثم مضيه مريدا سالكا حتى تتكشف أمامه الطريق ، فيتمكن من الوصول الى غايته بنجـــاح .

كما وضع مناهج للشيوخ أنفسهم يستأنسون بها فى ارشادهم ، كما يستأنس بها مريدوهم حتى يعرفوا القائد الحق فيحتـــرمون له قدوته ويحفظون له حقه وبذلك يزهر غرسه ويدنو ثمره .

وكان هو نفسه ــ سلوكا وتصرفا وقولا وعملا وآدابا وأخلاقا ــ فى الذروة العليا من الكمال الانسانى الذى بلغ به مراتب أهــل الفضل ، وجعل شيوخ عصره يجلونه ويكبرونه ويعترفون له بالمكانة العظيمة والمنزلة الرفيعة .

من أجل ذلك كله أطلق عليه لقب ((الشيخ الأكبر)) .

أما اللقب الثانى فهو ((سلطان العارفين)). وهو لقب يكاد يكون متلازما مع اللقب السابق ، فلم يستحق ابن عربى لقب ((الشيخ الأكبر)) الا بعـــد أن تبوأ عرش المعـرفة ، وأدرك من الأسرار ما عز على غيره ، واستطاع أن يشير الى حقائق تاهت فى الطريق اليها العقول ، وتفرقت العزائم ، وأدلى بمعان رائعة وحكم بالغة ، تدل على رسوخ قدمه وعلو كعبه وسعة معرفته .

ولقد شهد بذلك أعظم الصوفيين فى عصره ، ومنهم أبو مدين فى المغرب ، والسهروردى فى بغداد ، وابن الفارض فى مصر .

أطلق عليه أبو مدين هذا اللقب ((سلطان العارفين)) .

وقال عنه السهروردى : انه بحر الحقائق .

وأدرك ابن الفارض روعة الفتوحات المكية التى كتبها ابن عربى فقال : انها خير شرح لتائيته المشهورة ((نظم السلوك)) .

وهذه تقريرات ان دلت على شىء فانما تدل على ما وصـــل اليه الشيخ الأكبر من تألق ومقدرة .

ومن أجل ذلك أطلق عليه ((سلطان العارفين)) وهو جدير بهذا اللقب ، لأنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة في هذا الطريق الصوفى الغاص بالعقبات والمفاوز والمتاهات الا وأدلى فيها ببيان واف ، وعبـــارات رائعـــة نظما ونثرا . واتسعت معرفته فشملت غير العلوم الصوفية براعة ودقة وفهما وأداء .

هذه سيرة الشـــيخ الأكبر محيى الدين بن عربى سلطان العارفين ، التى نرجـو أن تكون حافزا لنا ، ومنارا نهتدى به فى حياتنا الجديدة . والله خير موفق ومعين ؟

عبد الحفيظ فرغلى القرنى

البيئة والعصر

كانت الأندلس هى الوطن الأصلى لابن عربى ، ففيها ولد وعاش ما يقرب من أربعين سنة من حياته العامرة الزاخرة الخصبة .

والأندلس اسم أطلقه المسلمون على شبه جزيرة « ايبيريا » التى كانت اقليما رومانيا مزهرا (١) .

وكان لموقع الأندلس الجغرافى الممتاز أثر كبير فى خصوبة تربتها واعتدال جوها وحسن مناخها ، مما كان سببا فى صحة أجسام أهلها ، وقوة جنانهم ، وسعة ادراكهم وخصوبة خيالهم وسرعة خاطرهم وشدة ذكائهم ، مما دعا « لسان الدين الخطيب » أحد وزرائها الأعلام الى وصفها بقوله : ـ « خص الله تعالى بلاد الأندلس من الريع ، وغدق السقيا ، ولذاذة الأقوات ، وفراهة الحيوان ، ودرور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبحر العمران ، وجودة اللباس ، وشرف الآنية ؛ وكثرة السلاح وصحة الهواء ، وابيضاض الوان الانسان ، ونبل الأذهان ، وفنون الصنائع ، وشهامة

---

(١) دائرة معارف الشعب مادة « أندلس »

الطباع ، ونفوذ الادراك ، واحكام التمدن والاعتمار بما حرمه الكثير من الأقطار مما سواها » (١) .

ويقول أبو عامر السلمى عن اقليم الأندلس : « هو خير الأقاليم وأعدلها هواء وترابا ، وأعذبها ماء ، وأطيبها هواء وحيوانا ونباتا، وهو أوسط الأقاليم وخير الأمور أوسطها » (٢) .

وكذلك قول أبو عبيد البكرى عن الأندلس : « الأندلس شامية فى طيبها وهوائها يمانية فى اعتدالها واستوائها ، هندية فى عطرها وذكائها ، أهوازية فى عظم جبايتها . صينية فى جواهر معادنها ، عدنية فى مواقع سواحلها » .

تلك هى الأندلس التى افتتحها المسلمون فى سنة ٩٢ هـ بقيادة « طارق بن زياد » وظلت تحت حكم الاسلام زهاء ثمانية قرون ، ازدهرت فى خلالها الحضارة الاسلامية ازدهارا عظيما ، وكانت مركز اشعاع أمد العالم الغربى بالعلم والتقدم ، وأنار أمامه الطريق الى رسم مستقبل علمى مجيد ، وانطلقت من آفاق الأندلس اشعاعات مضيئة فى شتى العلوم والمعارف والفنون ، مما جعلها تنافس شقيقاتها فى المشرق علما وثقافة وتألقا وازدهارا .

ونبغ فى ربوعها أعلام أفاضل دانت لهم الحياة ، وأحنت أمامهم قامتها الأيام اجلالا واعزازا .

واشتهرت فى الأندلس مدن كانت لها سوابق ومزايا فى تلك الأمور المتقدمة .

---

(١) نفح الطيب حـ ١ ص ٢٥٤ مطبوعات دار المأمون .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٥ .

من بين هذه المدن « مرسية » .

وتقع « مرسية » على وادى شقورة قرب مصبه ، وهو قسيم نهر الوادى الجديد الكبير .

وهذه المدينة كانت حاضرة شرق الأندلس فى العصر الاسلامى ، وهى مدينة اسلامية محدثة ، أسسها الأمير عبد الرحمن الأوسط سنة ٢١٦ هـ .

وازدهرت « مرسية » فى عصر الخلافة وعمرت ، وأصبحت من حواضر الأندلس الكبرى ، حتى سقطت الخلافة الأموية بقرطبة وتمزقت وحدة الأندلس .

وتعرضت « مرسية » لحكومات متعاقبة على أثر ذلك ، حتى آلت الى المرابطين ثم الموحدين ثم استولى عليها مالك قشتالة فى سنة ٦٤١ هـ .

وكانت « مرسية » بلد العلم والأدب ، وقد وفد من علمائها عدد كبير الى المشرق ، وعلى الأخص مصر ، ومن بينهم أبو عبد الله محمد بن يوسف المرسى المتخصص فى الفقه والكلام ، ومنهم الشيخ الزاهد أبو العباس المرسى تلميذ الشاذلى (١) .

ومنهم الفقيه الفصيح الجليل العالم الورع عبد الحق ابن سبعين الذى ذاع صيته وكثر أشياعه وتعددت مصنفاته (٢) .

ومن هذه المدن « أشبيلية » .

وتقع هذه المدينة على الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير قرب مصبه ، فى خليج عميق بحيث تصلح لأن تكون ميناء بحريا فى

---

(١) راجع دائرة معارف الشعب مادة أندلس .

(٢) نفح الطيب ٧٠ ص ١٨٨ .

جنوب أسبانيا ، ويتميز هذا النهر بشدة صعود المد فيه ، حتى انه ليصـــل الى اثنين وسبعين ميـــلا ثم يحسر ، وفيـــه يقول الشاعر ابن سفر :

شق النســيم عليه جيب قميصه
فانساب في شــــطيه يطلب ثاره

فتضاحكت ورق الحمــام بدوحها
هزا فضم من الحيـــــاء ازاره (١)

وتتوسط « أشبيلية » سهلا فسيحا ، وكانت زمن المسلمين مدينة عامرة ، بها أسواق قائمة وتجارات رائجـــة ، وتمتعت — ولا سيما فى عهد بنى أمية — بازدهار شامل فى حياتها ، وأقام فيها الأمراء المنشآت العظيمة ، وشهدت على تعاقب الولاة تقدما لم تشـــهده من قبل لا فى عصر الرومان ، ولا فى عصر القوط ، ووصل بها الأمر الى أن أصبحت أعظم مدن أسبانيا الاسلامية بعد أن تخلت لها قرطبة عن الزعامة .

وقد بالغ مؤرخو العرب فى وصف روائع « أشـــبيلية » وما كانت تنفرد به دون غيرها من الحواضر الأندلسية ، وكانت — على حد تعبيرهم — عروس بلاد الأندلس وقاعدتها ، وبرع فى ظلالها كثير من الأدباء والعلماء والفنانين (٢) .

تلك هى الأندلس ، وفي هاتين المدينتين منها ولد « الشيخ الأكبر » وعاش الشطر الأول من حياته ، فى تلك الظلال الباسقة من العلم والعرفان .

وكانت البيئة العربية فى ذلك الوقت الذى نشأ فيه « سلطان

---

(١) المرجع السابق حـ ١ ص ٣٠٨ .
(٢) دائرة معارف الشعب مادة « أندلس » .

العارفين » بيئة ممهدة خصبة لازدهار العلوم والمعارف ، وأدى التنافس الشديد بين الدولتين العربيتين الكبيرتين فى المشرق والمغرب الى ظهور كثير من العلماء المبرزين فى شتى أنواع العلم والمعرفة ، وبخاصة فى التصوف الذى امتدت فروعه وزكت أصوله واتسعت معارفه ، ووصل الى أقصى ما يمكن أن يصل اليه من نمو وازدهار ، ودان به كثير من العلماء الأجلاء الذين رسخت أقدامهم ومضوا فى طريقهم ينشرون الهدى والنور من حولهم .

كان عصر « ابن عربى » عصرا ذهبيا فى التصوف ، وشهد مشرق كثير من فحوله من أمثال السهروردى البغدادى ، والشاذلى . والدسوقى ، والبدوى ، وعمر بن الفارض ، وجلال الدين الرومى ، وعفيف الدين التلمسانى ، وأبى الحسن الصباغ ، وأبى العباس المرسى وأبى العباس الخزرجى الأندلسى ، وعبد الحق بن سبعين ، وأبى مدين المغربى ، وأبى الحجاج الأقصرى ، وكثير غيرهم عمرت بهم البلاد الاسلامية فى شرقها وغربها .

وقد نضج التصوف نضجا كبيرا ، وخطا على يد أربابه خطوات فساحا ، وظهرت فيه الأذواق المختلفة التى تمثل اتجاهات الصوفية فى ذلك العصر .

وكان ذلك ثمرة من ثمار النضج الروحى والفكرى الذى ظهر فى خلال ذلك العصر ، والذى أدت اليه حركة المد العلمية الواسعة التى شملت جميع أجزاء الدولة الاسلامية المتعددة الأطراف « وكان حظ الأندلس من العلوم والآداب كبيرا للغاية ، فتقدمت تقدما ملموسا منذ العهد الأموى ، واشتغل منهم كثيرون

فى الطب والكيمياء والهندسة والعلوم الرياضية ، ونبغوا فى الفلسفة والتصوف والنحو والشعر » (١) .

ويوجد مئات من العلماء الأعلام الذين كان لهم أثر مرموق فى الرقى الفكرى والعقلى والروحى ، ذكرتهم كتب التاريخ والطبقات ، وعلى أيديهم تخرج الآلاف من الطلاب الذين زخرت بهم المدارس والجامعات ، وامتلأت بهم المدن ، وامتدت بهم آمال الأمة العربية والاسلامية ، وارتبطت بهم أوصالها ، حيث اتسعت حركة الهجرة بين شرقيها وغربيها .

وقد ترجم « المقرى » في كتابه نفح الطيب لكثير من هؤلاء الأعلام الذين هاجروا من الأندلس الى المشرق ، ومن بينهم الكثير من الصوفية .

وعلى قدر ما كانت ترفل فيه الأندلس من حلل الترف والحضارة والنعمة ، مما أدى الى انصراف كثير من المترفين الى المتعة واللذة واستغراقهم فى اللهو واللعب كان هناك التصوف الذى لعب دورا كبيرا فى حياة بعض الأفراد ، ووقف يلوح بعصاه ليهذب من ضراوة النفوس ويكبح من جماح الشهوات .

وكان التصوف قد تطور فى أطواره المختلفة التى نقلته من مجرد نزعة تقشفية الى التغلغل فى صميم الكون والنفس الانسانية واكتشاف أعماق الحياة ، وأصبح التصوف فى هذا العصر يمثل ناحيتين هامتين ، احداهما الجانب العملى ، ويقصد به ضروب المجاهدة والمكابدة وما تدعوان اليه من تهذيب خلقى ، وما تكلفانه من سلوك ألوان خاصة فى الرياضة الروحية كالصوم والعزلة والسهر والصمت والفكر والسياحة والذكر وغير ذلك .

---

(١) دائرة معارف الشعب مادة أندلس ص ١٩٧ .

وثانيهما الجانب النظرى الذى تثمره الناحية العملية من معرفة لواجب الوجود وتعبير عما يشاهده العارف وعما يحس به في أثناء سيره فى طريقه من أحاسيس القرب أو المشاهدة أو الشوق أو الأنس أو الوجد أو غير ذلك .

واختلفت تعبيرات الصوفية بين هاتين الناحيتين اختلافا أثار كثيرا من النقاش والجدال ، بين مؤيد ومعارض ومدافع ومهاجم ، وكونت هذه الحالة حركة فكرية كان لزاما أن تشغل عقول العلماء والمفكرين .

فى هذه الظروف نشأ ابن عربى الشيخ الأكبر ، الذى أثار أكبر ضجة فى تاريخ التصوف ، وترك من خلفه ثروة ضخمة من المعارف الصوفية ، وكان لآرائه الجريئة صدى عميق ظل الى وقت طويل يثير ثائرة المعارضين واعجاب المؤيدين .

نسبه ومولده ونشأته

أســـرته : ــ

ولد ابن عربى فى أسرة عريقة تعتز بأصلها العربى السامق . فهو من نسل حاتم بن عبد الله الطائى المتوفى سنة ٥٧٨ م ، وهو الجواد الفارس المشهور بكرم الأخلاق ، وكان مظفرا ، اذا قاتل غلب ، واذا أسر أطلق ، واذا غنم أعطى ، واذا سئل أجاب ، ضرب المثل بجوده حتى لقد رويت عنه الأخبار ، ونسجت حوله القصص فى الآداب العربية والفارسية والتركية والهندوستانية ، وله ديوان شعر يدور حول الجود والخلق الكريم (١) .

وورث أولاده وأحفاده هذه الصـــفات منه ، واعتزوا بها وحرصوا عليها ، وكانت مثار فخـــر لهم ، ولم ينس ابن عربى ــ وهو شاعر مجيد ــ التغنى بهذه الصفات الكريمة التى ورثه اياها نسبه العظيم ، فقال فى احدى قصائده :

اذا فل سـيفى لم تفل عزائمى
فلى عزمات شاحذات صـوارمى

والا فسـل عنا القنا هل وفت لنا
وأسـيافنا يوما بقـدر عزائمى

---

(٢) نفح الطيب حـ ٧ ص ١٨٨ .

لنـــا الجود ؛ اذ كنا ســــلالة حاتم
وما زال مـــذ قلدته فى تمـــائمى

وقال فى قصيدة أخرى : ـ

لنـــا همـــــة ان الثريا لدونهـــا
نعم ، ولنا فوق الســـماكين منزل

تقــدمت سبقا فى المكارم والعــلا
وفي كل ما ينكى العــدا أنا أول

ولم ألف صمصـــاما بقـــدر عزائمى
ولو جمعـــوا الأســـياف عزمى أول

كذلك جودى لا يفى الغيث والثرى
اذا كان أمـــوالا به حـــين أبذل

أنا العربى الحاتمى أخو النـــدى
لنا فى العلا المجد القديم المؤثل .

ولأسرة الطائى سابقة فى الاسلام جديرة بالتسجيل ، وهى أن عديا الطائى بن حاتم وكان يعرف بالجواد ابن الجواد ، وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعبان سنة سبع ، وأسلم وحسن اسلامه ، ونزع له النبى صـــلى الله عليه وسلم وسادة كانت تحته فألقاها له حتى جلس عليها ، ولما ارتدت العرب ثبت عدى وقومه على الاسلام ، وكان أول صدقة قدم بها على أبى بكر صدقة عدى وقومه ، وشهد فتح المدائن ، وشهد مع سيدنا على حروبه ، وفقئت عينـــه يوم الجمل وتوفى سنة ٦٨ هـ عن نحـــو ١٢٠ سنة (١) .

---

(١) نفح الطيب حـ ٧ ص ٩٢ هامش .

نسبه :

ونسب ابن عربى كما ورد فى أكثر من مرجع هو : أبو بكر محيى الدين محمد بن على بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمى الطائى الأندلسى (١) . من ولد عبد الله بن حاتم أخى عدى بن حاتم الفقيه الصوفى المشهور الظاهرى (٢) .

وتضيف دائرة المعارف الاسلامية أنه كان يعرف فى الأندلس « بابن سراقة » ولعلها استندت فى ذلك الى ما جاء فى نفح الطيب نقلا عن كتاب « عنوان الدراية فى تاريخ بجاية » ولكن الواقع أن الذى يعرف بابن سراقة ليس هو الشيخ الأكبر ، ولكنه الامام محيى الدين أبو بكر محمد بن محمد بن ابراهيم الأنصارى ، شيخ دار الحديث الكاملية بالقاهرة ، ولد سنة ٥٩٢ هـ وله مؤلفات فى التصوف ، وهو أحد الأئمة المشهورين بغزارة العلم ، وتوفى سنة ٦٢٢ هـ (٣) ، وكان أحد الملازمين لدروس سيدى أبى الحسن الشاذلى فى مصر (٤) . وقد ترجم له صاحب كتاب « المغرب فى حلى المغرب » وذكر أنه : أبو بكر محمد بن أبى عبد الله محمد بن سراقة . وأنشد له شعرا (٥) .

وكان الشيخ الأكبر يطلق عليه فى الأندلس : « ابن العربى » بالألف واللام ، أما فى المشرق فكانوا يطلقون عليه « ابن عربى »

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية — دائرة معارف البستانى — شذرات الذهب حـ ٥ ص ١٩٠ .

(٢) نفح الطيب حـ ٧ ص ٩٢ .

(٣) المصدر السابق ص ١٤٩ .

(٤) أبو الحسن الشاذلى لعبد الحليم محمود ص ٤٣ .

(٥) المغرب فى حلى المغرب حـ ٢ ص ٣٨٨ .

من غير أداة التعريف . تمييزا بينه وبين القاضى أبى بكر بن العربى المعافرى ، قاضى قضاة « أشبيلية » وهو أحـــد علماء الأندلس المشهورين الراحلين الى المشرق ، ولد سنة ثمان وستين وأربعمائة، وتوفى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة . قبل مولد الشيخ الأكبر بسبعة عشر عاما تقريبا .

مولده .

وقد أجمعت المصـــادر على أن ابن عربى الشيخ الأكبر ولد يوم الاثنين سابع عشر من رمضان المعظم سنة ستين وخمسمائة هجرية ، فى مدينة « مرمسية » بالأندلس ، من أبوين كريمى المحتد ، وفى ظل أسرة عريقة غنية مشهورة بالتقوى والصلاح .

أما أبوه على بن محمد فقد كان رجـلا صـالحا مواظبا على تلاوة القرآن الكريم ، وله مع سورة « يسن » صحبة خاصة ، ويبدو أنه كان مباركا ، بدليل أنه قد تنبأ باليوم الذى سيموت فيه فكان كما تنبأ ، ويحدث ابن عربى عن الكرامات التى صاحبت أباه يوم وفاته وعن الاشراق الذى كسا وجهه وغشى جسمه حتى أضاء ما حوله فيقول فى كتاب « الفتوحات المكية » : — « وكان قبل أن يموت بخمسة عشر يوما أخبرنى بموته ، وأنه يموت يوم الأربعاء ، وكذلك كان، فلما كان يوم موته ، وكان مريضا شديد المرض استوى قاعدا غير مستند ، وقال لى : يا ولدى ، اليوم يكون الرحيل واللقاء فقلت : كتب الله سلامتك في سفرك هذا وبارك لك فى لقائك ، ففرح بذلك ، وقال لى : جزاك الله يا ولدى عنى خيرا، فكل ما كنت أسمعك تقوله ولا أعرفه ، وربما كنت أنكر بعضه هوذا أنا أشهده ، ثم ظهرت على جبينه لمعة بيضاء تخالف لون جسده من غير سوء ، لها نور يتلألأ ، فشعر بها الوالد ، ثم ان تلك اللمعة انتشرت على وجهـــه الى أن عمت بدنه ، فقبلت يده وودعته

وخرجت من عنده وقلت له : أنا أسير الى المسجد الجامع الى أن يأتينى نعيك ، فقال لى : رح ولا تترك أحدا يدخل على ، وجمع أهله وبناته ، فلما جاء الظهر جاءنى نعيه فجئت اليه فوجدته على حالة يشك الناظر فيه بين الحياة والموت ، وعلى تلك الحالة دفناه، وكان له مشهد عظيم » (١) .

وأما أمه فاسمها « نور » وهى امرأة صالحة كانت تحثه دائما على ارتياد طريق الصلاح ، واتباع سبيل الهدى . ولم تجزع حينما ترك ابنها الدنيا وسلك طريق الزهادة والتقوى . وحينما ألزم نفسه خدمة العارفة بالله « فاطمة بنت ابن المثنى القرطبى » بأشبيلية كانت أمه تزوره عندها ، فتقول لها فاطمة : يا نور هذا ولدى وهو أبوك ، فبريه ولا تعقيه . فلا تجد فى نفسها غضاضة مما تسمع ، وكانت تتلقاه بقبول حسن .

أما أخواله فمنهم الأعلام الذين سلكوا طريق التصوف ، وبلغوا منه مبلغا عظيما ، وقد كان أحدهم وهو « يحيى بن يغان » ملكا على مدينة تلسمان وكان فى زمنه رجل فقيه زاهد متبتل ، قد انقطع فى مسجد يعبد الله فيه .

وبينما كان هذا العابد سائرا فى طريقه بين مدينتى تلمسان وأقادير ، اذ لقيه « يحيى بن يغان » وقد أحاط به خدمه وحشمه، فسأل عن هذا الزاهد ، فقالوا له : هو أبو عبد الله التونسى عابد وقته ، فوقف بجواره ، وسلم على الشيخ ، فرد عليه الشيخ السلام ، ثم قال الملك — وكان يرتدى ثيابا فاخرة — للشيخ : يا شيخ ، هل يجوز لى أن أصلى فى هذه الملابس التى أرتديها ؟.

فضحك الشيخ ، فقال له الملك : مم تضحك ؟

---

(١) ابن عربى حياته ومذهبه ترجمة عبد الرحمن بدوى .

فأجاب الشيخ : من سخف عقلك وجهلك بنفسك ، مالك تشبيه عندى الا بالكلب ، يتمرغ فى دم الجيفة وأكلها وقذارتها ، فاذا جاء يبول يرفع رجله حتى لا يصيبه البول ، وأنت وعاء ملىء حراما وتسأل عن الثياب ، ومظالم العباد فى عنقك !!

فبكى الملك « يحين بن يغان » خال ابن عربى ، وخرج عن ملكه من حينه ، ولزم خدمة الشيخ ، فألزمه الشيخ بأن يحتطب ، فكان يحمل الحطب على رأسه ويمضى به الى السوق ليبيعه ، فيقتات منه ويتصدق بالباقى ، وظل على ذلك حتى مات ودفن بجوار الشيخ .

وكان الناس اذا جاءوا يقصدون الشيخ للتبرك ، ويطلبون منه الدعاء يقول لهم : التمسوا الدعاء من يحيى بن يغان ، فانه ملك وزهد ، ولو ابتليت بما ابتلى من الملك ربما لم أزهد (١) .

وكان من اخواله أيضا « أبو مسلم الخولانى » الذى كان له فى الطريق الصوفى مجاهدات شاقة لا يصبر عليها الفحول من الرجال .

أما أعمامه فكان منهم « عبد الله بن محمد » الذى كانت له قدم ثابتة فى الطريق ووصل الى درجة من درجات كبار الصوفية ، وهى درجة جلاء البصيرة ومعرفة بواطن الأمور .

هذه عمومته القريبة ، أما عمومته البعيدة فقد مر بنا قول « المقرى » الآنف عنه : أنه من ولد عبد الله بن حاتم أخى عدى ابن حاتم الفقيه الصوفى المشهور .

فى هذا الظل الوارف من الصلاح والتقوى نشأ ابن عربى ، فكان جديرا بأن يكون ابن هذه البيئة الطيبة الصالحة ، حتى

---

(١) ابن عربى ص ٦ .

اذا اكتمل شبابه اكتملت معه الهالة المشرقة الوضاءة من حوله بزواجه من فتاة تقية صالحة ، هى « مريم » ابنة محمد بن عبدون ابن عبد الرحمن البجائى ، التى كان لها أثر كبير فى دفعه الى طريق الهدى والنور .

وكان مولد ابن عربى فى مدينة « مرسية » وكان يحكمها فى ذلك الوقت « محمد بن مردنيش » ولم تلبث جيوش الموحدين أن زحفت الى الأندلس واستولوا على أغلب مدنها ، فأعد لهم « ابن مردنيش » جيشا وخرج لقتالهم ، وتبادل الفريقان النصر والهزيمة ، حتى انتهى أمر « ابن مردنيش » الى الادبار فهزم فى ذى الحجة سنة ٥٦٠ هـ ، وابن عربى في ذلك الوقت عمره شهور ، وحاصر الموحدون « مرسية » فترة من الزمن ثم أقلعوا عنها ، ثم عاودوا هجومهم عليها مرة أخرى ، وشددوا الحصار ، وأخيرا استسلم « بنو مردنيش » آثروا الطاعة « لأبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الموحدى » سنة ٥٦٧ هـ (١) .

وقد أجمع المؤرخون على أن « ابن عربى » ولد فى « مرسية » باستثناء « ابن الأبار » فيما نقله عنه صاحب نفح الطيب ، من أنه من أهل « المرية » (٢) ، ولكن يبدو أن « المرية » محرفة عن « مرسية » وقد أثبت ذلك فعلا الأستاذ أحمد يوسف نجاتى فى هامش الصفحة التى ذكر فيها ذلك .

وكانت طفولة ابن عربى الأولى فى « مرسية » فى ظل ذلك الصراع الدائر حول المدينة ، ولكن ذلك لم يكن ليشغل أسرته عن اعداد هذا الطفل لمستقبله ، فدفعوه الى من يأخذ بيده الى التهيؤ لحفظ القرآن الكريم .

---

(١) دائرة معارف الشعب مادة مرسية ص ٤٨ .

(٢) نفح الطيب حـ ١ ص ٩٥ .

إقباله على طلب العلم - شيوخه فى طلبه

فى سنة ثمان وستين وخمسمائة تحولت الأسرة الى «أشبيلية» وهناك أقبل « ابن عربى » على التعلم ، وبدأ بعلوم القرآن الكريم .

وكان أستاذه فى علم القراءات « أبا بكر محمد بن خلف اللخمى الأشبيلى » وهو من أكبر العارفين بالقراءات والعربية ، وكان مقدما فيهما ، وله مؤلفات نافعة فى اللغة والقراءات والتفسير ، توفى سنة ٥٨٦ هـ .

قرأ « ابن عربى » القرآن الكريم بالسبع على هذا الأستاذ الفاضل ، وانتفع فى ذلك أيضا بكتاب « الكافى فى القراءات السبع » عن طريق ابن مؤلفه : أبى الحسن بن محمد بن شريح الرعينى ، الذى كان يحدثه بهذا الكتاب عن أبيه .

وانتفع بهذا الكتاب أيضا عن طريق شيخ آخر هو : أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد القرطبى المعروف بالشراط ، وكان عالما بالقراءات وطرقها بصيرا باللغة العربية وآدابها ، له حظ من قرض الشعر فاضلا زاهدا ورعا ، وتوفى سنة ٥٨٦ هـ .

وقرأ « ابن عربى » كتاب « التيسير لأبى عمرو الدانى » على شيخ جليل هو « أبو بكر محمد بن أبى حميرة » وكان والد هذا الشيخ من أهل الحفظ والعلم والمعرفة ، وكان شديدا فى الحق وتلقى ابنه أبو بكر عنه علومه ومعرفته وفهمه وحذقه .

وكان من شيوخ « ابن عربى » فى الحديث والفقه والأدب : أبو عبد الله محمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد المعروف بابن زرقون المتوفى سنة ٥٨٦ هـ ، كان أحد سراة الرجال حافظا للفقه مبرزا فيه ، مشهودا له بالبراعة فى الأدب والمشاركة فى قرض الشعر وحسن التصرف فى طرفى النظم والنثر ، ولى القضاء ، وله مؤلفات نافعة .

ومن شيوخه أيضا : أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن ابن عبد الله بن حسين بن سعيد الأزدى الأشبيلى،وكان فقيها حافظا عالما بالحديث وعلله ، عارفا بالرجال موصوفا بالخير والصلاح والزهد والورع أديبا شاعرا ، توفى سنة ٥٨١ هـ .

كذلك كان من شيوخه فى الحديث والفقه : أبو بكر محمد بن عبد الله بن يحيى بن الجد ، وكان فى وقته فقيه الأندلس وحافظ المغرب لمذهب مالك غير مدافع ولا منازع ، لا يدانيه أحد فى ذلك ولا يجاريه واليه كانت رياسة بلده والانفراد بها ، ثم ورثه عقبه من بعده ، وكان فصيحا خطيبا مفوها ، وقد جل قدره فى «أشبيلية» وكان يعرف بالحافظ لكونه أعجوبة فى سرعة ما يحفظه ، وبلغ به العلم الى مرتبة علية بحيث أن كان يوسف بن عبد المؤمن ينزل له عن فرسه اكراما له . توفى سنة ٥٨٦ هـ (١) .

ومن شيوخه أيضا « أبو محمد عبد المنعم بن عبد الرحيم الخزرجى الغرناطى » ، وكان له تحقق بالعلوم على تفاريقها ، وأخذ منها فى كل فن ، وكان من أعلم أهل الأندلس بمذهب مالك ، وهو من أهل بيت عريق فى العلم توفى سنة ٥٩٧ هـ .

ومن شيوخه « أبو القاسم جمال الدين عبد الصمد بن محمد ابن أبى الفضل الحرستانى » قاضى القضاة ، ولد سنة ٥٢٠ هـ ، وكان فاضلا فقيها شافعيا صالحا عابدا عدلا ، وتوفى سنة ٦١٤ هـ .

---

(١) المغرب فى حلى المغرب حـ ١ ص ٣٤٢ .

وسمع الحديث فى « إقرطبة » من « أبى القاسم خلف بن عبد الملك ابن مسعود بن بشكوال » . وكان من علماء الأندلس ، وله التصانيف المفيدة ، ولد فى ذى الحجة سنة ٤٩٤ هـ ، وتوفى فى رمضان سنة ٥٧٨ هـ .

وقرأ ابن عربى كتبا كثيرة فى مختلف العلوم والفنون ومن بينها كتب « ابن حزم » حدث عن نفسه قائلا فى احدى رسائله الى الملك المظفر غازى :

ومن شيوخنا الأندلسيين «أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن ابن عبد الله الأشبيلى » رحمه الله تعالى ، حدثنى بجميع مصنفاته فى الحديث ، وعين لى من أسمائها : تلقين المهتدى ، والأحكام الكبرى والوسطى والصغرى ، وكتاب التهجد ، وكتاب العاقبة ونظمه ونثره ، وحدثنى بكتب الامام « أبى محمد بن أحمد بن حزم عن أبى الحسن شريح بن محمد بن شريح عنه » (١) .

و « ابن حزم » كان حجة ، وامام وقته ، ومن كتبه التى يشير اليها « ابن عربى » ويغلب أنه قرأها : كتاب الايصال لأفهم الخصال، لجمع شرائط الاسلام فى الواجب والحلال والحرام ، وموضوعه فقه الحديث ، ومنها : الاحكام لأصول الأحكام ، والفصل بين الأهداء والنحل ، والاجماع ومسائله على أبواب الفقه ، ومنها كتاب مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض (٢) .

عن هؤلاء الشيوخ السابقين وكثير غيرهم تلقى « ابن عربى » علوم القرآن والحديث والفقه والأدب واللغة والأصول وغيرها .

وكان لتوجيهاتهم – لاسيما الأدباء منهم – أثر كبير فى صقل

---

(١) نفح الطيب جـ ٧ ص ٩٩ .

(٢) دائرة معارف البستانى مادة « ابن حزم » .

موهبته الأدبية والشعرية التى أعان عليها طبعه العربى ، واستعداده الموروث من أسرة عريقة فى الشعر والأدب ونشأته فى هـــذه البيئة الأندلسية ذات الطبيعة الساحرة التى تهذب الوجدان وتثير العاطفة وترقق الشعور وتنمى الخيال .

يقول « أسين بلاثيوس » : ـ « ولما بلغ الثامنة من عمره انتقل مع أهله الى « أشبيلية » بعد أن خضعت « مرسية » لحكم الموحدين، ولابد أن يكون قد تلقى تربية أدبية ودينية كاملة ، لأنه فى كتبه يشير مرارا عديدة الى شيوخه فى القــراءات والتاريخ والأدب والشعر والحديث ، وقد أقرأوه فى أشبيلية خصوصا الكتب الرئيسية فى كل فن » (١) .

شغفه بالعلم ومقدرته فيه :

وكان لدى « ابن عربى » استعداد قوى لطلب العلم واقبال شديد على ارتياد موارده وانتهال فيضه ، وكان عنده نهم شديد الى قراءة كل ما يتصل بفنون العلم المختلفة ، وهو يحدثنا فى كتاب «المحاضرة» عن قراءته لكثير من الكتب فى مختلف الفنون : منها كتاب الامتناع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ، وكتاب المجالسة للدينورى، وكتاب بهجة الأسرار للامام ابن جهضة ، وكتاب المبتدأ لاسحاق بن بشر ، وكتاب دلائل النبوة للامام الحافظ أبى نعيم ، وكتاب السيرة لمحمد بن اسحاق وكتاب السيرة لابن هشام ، وكتاب صفوة الصفوة لابن الجوزى ، وكتاب مسند الشهاب لابن سلامة القضاعى ، وكتاب المسند للأزرقى فى مكة تأليف الأزرق بن عمرو القضاعى الأزرقى ، وكتاب المسند الكبير لابن حنبل ، وكتــاب السنن للسجستانى ، وكتاب الترمذى وصحيح مسلم وصحيح البخارى وغيرها (٢) .

---

(١) ابن عربى حياته ومذهبه ص ٨ .

(٢) محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ج ١ ص ٥ .

وقد أشار هو الى هذه الكتب وغيرها بعد قوله : ـ « وكلما سطرته فى كتابى هذا فمنه ما شاهدته أو حدثنى به من شاهده ، ومنه ما نقلته من كتب مشهورة رويتها سماعا أو قراءة أو مداولة أو كتابة مثل ... » ثم يحدثنا عقب ذلك عن روايته عن كثير من الشيوخ فى مختلف الفروع ، مما يشهد له بالحرص الشديد على طلب العلم والدقة فى الرواية والتمكن فيها . ويذكر عددا من الشيوخ الذين روى عنهم العلم وانتفع بهم مما يدل على أنه كرس كل وقته وكافة جهده لطلب العلم ، ويشهد لذلك الانتاج الضخم الذى أنتجه فى مختلف المعارف .

وقد بدأ استعداده للتعلم مبكرا ، ولم يعق هذا الاستعداد ما يصرف مثله فى هذه السن المبكرة من دوافع الصبا ، والرغبة فى مشاركة الرفاق بعض لهوهم الساذج ومتعهم البريئة .

ولقد كانت تغلبه فى بعض الأحيان طبيعة سنه ، فيقبل على الصيد فى السهول المحيطة بأشبيلية ممتطيا صهوة جواد يركض به ، ولكن ذلك الاقبال لم يلبث أن يفتر سريعا تحت رغبة ملحة كامنة ، توحى اليه بوجوب انتهاز الوقت فى تحصيل ما لا يمكن تداركه بعد فوات الأوان ، وربما كان ذلك تعهدا الهيا لهذا الذى يوشك أن يصبح فيما بعد رجلا عارفا بصيرا ربانيا مبارك الخطوات .

وبفضل هذا الاقبال العظيم على الطلب والافادة أصبح هذا الطالب المجد أستاذا يشار اليه بالبنان ، وأصبحت لديه المقدرة الكاملة على المقارنة والاستنباط ، وأعانته قريحته النفاذة على ادراك ما استكن من أسرار العلوم ودقائق الاشارات ، ولكنه مع ذلك كان متمسكا بطريقة السلف الذين لم يروا غير الأخذ بالكتاب والحديث والاجماع ، فنجده ينحو باللائمة على من ينسبه الى ابن حزم أو غيره من المجتهدين الأئمة ، وان كان يكن لابن حزم وغيره من هؤلاء كل اجلال واكبار ، ويعترف بقراءة كتبهم وتتلمذه عليهما . جاء فى

شذرات الذهب : « كان « ابن عربى » مجتهدا مطلقا بلا ريب ، قال فى رائيته :

لقـــد حرم الرحمن تقليـــد مالك
وأحمـد والنعمـان والكل فاعذروا

وقال أيضا :

لست ممن يقول : قال ابن حـــزم
لا ولا أحمـــد ولا النعمـان » (١)

ويقول أيضا فى ذلك :

نســـبونى الى ابن حـــزم وانى
لست ممن يقول : قال ابن حــزم

لا ولا غـــيره فـان مقـــالى :
قال نص الكتـــاب ذلك علمى

أو يقول الرسول أو أجمع الخلق على ما أقول . ذلك حكمى

ويعلق الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل على هذه الأبيات بقوله : « أبو محمد بن حزم الظاهرى يأخذ بالنقـــل وظاهر النصوص ويستكثر من السنن ، وعن طريق النقص فى النقل وضعف الثقة فى الناقلين هاجم ابن حزم الملل الأخرى ، ورآها لا تثبت أمام النقد الصحيح ، و « ابن عربى » مع اتفاقه مع ابن حزم فى الاعتماد على النقل والنصوص لا يرى أن يأخذ بظاهرها وحسب ، بل ومعهـــا بواطنها ، ولذا فهو يتنصل من اتهام بعض الناس له من أنه مقلد لابن حزم الظاهرى ، ولم يقلد « ابن عربى » فقيها آخر .. سواء كان من الذين أخذوا بالظاهر ، أو جاسوا خلال الكلام وأخذوا بالرأى

---

(١) شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٩٩ .

كالقدرية أو المعتزلة أو الفلاسفة ، وانما يعتمد فى كل ما يقوله على نصوص الكتاب الكريم وأحاديث الرسول الشريفة واجماع المسلمين ، غير واقف عند الظاهر ولا شاطح وراء الضلال ، ومهما كان تأويل « ابن عربى » لقول من الأقوال ، فانه لم يعتمد علما ولا حكما الا كما ورد عن الله وعن رسوله أو أجمع عليه جمهور المسلمين » (١) .

ومما يؤكد ذلك قوله فى الفتوحات : ــ « وليس عندنا بحمد الله تعالى تقليد الا للشارع صلى الله عليه وسلم » (٢) .

ويعلق ابن العماد على قول ابن عربى : لست ممن يقول قال ابن حزم قائلا : « وهذا صريح بالاجتهاد المطلق ، كيف لا ؟ وقد قال : عرضت أحاديثه صلى الله عليه وسلم جميعها عليه ، فكان يقول عن أحاديث صحت من جهة الصناعة ماقلتها ، وعن أحاديث ضعفت من جهتها قلتها ، واذا لم يكن مجتهدا فليس لله مجتهد ، ان لا تراه فهذه آثاره » (٣) .

نفوره من الفلسفة :

تبحر « ابن عربى » فى كل العلوم الشرعية واللغوية ، وأخذ منها حظه الكامل ، ووصل الى مكانة مرموقة ، ولكنه لم يعرف عنه أنه اختلف الى أحد علماء الفلسفة ليتعلم منه ، فقد كان بطبعه ينفر منها ، وهو يقص علينا فى كتاب الفتوحات قصة لقائه مع فيلسوف الأندلس : « أبى الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبى » ومنها نفهم أنه لم يكن يرغب فيما كان يشغل به ابن رشد عقله ، فلنستمع

(١) مجلة منبر الاسلام : ذو القعدة ١٣٨٦ هـ .

(٢) الكبريت الأحمر ص ٣ .

(٣) شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٩٩ .

اليه يقول : « دخلت يوما بقرطبة على قاضيها أبى الوليد بن رشد ، وكان يرغب فى لقائى لما سمع ، وبلغه ما فتح الله به على فى خلوتى ، وكان يظهر التعجب مما سمع ، فبعثنى والدى اليه فى حاجة قصدا منه حتى يجتمع بى ، فانه كان من أصدقائه ، وأنا صبى ما بقل وجهى ولا طر شاربى ، فلما دخلت عليـــه قام من مكانه الى محبـــة واعظاما ، فعانقنى وقال لى : نعم ، فقلت له : نعم ، فزاد فرحه بى لفهمى عنه ، ثم انى استشعرت بما أفرحه من ذلك ، فقلت له : لا ، فانقبض وتغير لونه ، وشك فيما عنده ، وقال : كيف وجدتم الأمر فى الكشف والفيض الالهى ؟ هل هو ما أعطاه لنا النظر ؟

قلت له : نعم ، لا ، وبين نعم ولا تطير الأرواح من موادها والأعناق من أجسادها ، فاصفر لونه وأخذ الأفكل (١) ، وقعد يحوقل ، وعرف ما أشرت به اليه ، وهو عين هذه المسألة التى ذكرها هـــذا القطب الامام أعنى مداوى الكلوم (٢) .

وطلب من أبى بعد ذلك الاجتماع بنا ليعرض ما عنده علينا ، هل هو يوافق أو يخالف ، فانه كان من أرباب الفكر والنظر العقلى ، فشكرا لله تعالى الذى كان فى زمان رأى فيه من دخل خلوته جاهلا ، وخرج مثل هذا الخـــروج من غير درس ولا بحث ولا مطالعة ولا قراءة ، وقال : هذه حالة أثبتنـــاها وما رأينا لها أربابا ، فالحمد لله الذى أنا فى زمان فيه واحد من أربابها الفاتحين مغاليق أبوابها ، والحمد لله الذى خصنى برؤيته .

« ثم أردت الاجتماع به مرة ثانية ، فأقيم لى رحمة من الله فى الواقعة فى صورة ضرب بينى وبينه فيها حجاب رقيق أنظر اليه منه ولا يبصرنى ولا يعرف مكانى ، وقد شغل بنفسه عنى ، فقلت :

---

(١) الأفكل على وزن أحمد : الرعدة ـ قاموس .

(٢) مداوى الكلوم لقب أحد الأقطاب الذين تعرف اليهم ابن عربى .

انه غير مراد لما نحن عليه ، فما اجتمعت به حتى درج ، وذلك فى سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمدينة مراكش ، ونقل الى قرطبة وبها قبره ، ولما جعل التابوت الذى فيه جسده على الدابة جعلت تآليفه تعادله من الجانب الآخر ، وأنا واقف ومعى الفقيه الأديب أبو الحسن محمد بن جبير ، كاتب السيد أبى سعيد ، وصاحبى أبو الحكم عمر بن السراج الناسخ ، فالتفت أبو الحكم الينا وقال : الا تنظرون الى ما يعادل الامام ابن رشـــد فى مركوبه ؟ هـــذا الامام وهذه أعماله ، يعنى تآليفه ، فقال له ابن جبير : يا ولدى ، نعم ما نظرت لافض فوك ، فقيدتها عندى موعظة وتذكرة رحمهم الله جميعهم ، وما بقى من الجماعة غيرى ، وقلنا فى ذلك :

هـــذا الامـــام وهـــذه أعمـــاله
يا ليت شعرى هل أتت آماله ؟ » (١)

فنحن نفهم من قول ابن رشد : انه فى زمان رأى فيه من دخل خلوته جاهلا وخرج مثل هذا الخروج من غير درس ولا بحث ولا مطالعة ولا قراءة ـ وهو يقصد « ابى عربى » بقوله هذا ـ أن « ابن عربى » حين دخل الخلوة لم يكن على دراية بعلوم الفلسفة التى يعتبرها ابن رشد هى العلوم الجديرة بالاطلاع ، ومن لم يطلع عليها فهو جاهل . كما يفهم من قول « ابن عربى » عن ابن رشد : انه غير مراد لما نحن عليه عدم رغبة « ابن عربى » فى تلقى هـــذه العلوم التى كان يدرسها ابن رشد .

وكذلك يفهم من حوار الأصدقاء يوم وفاة ابن رشد مدى الرثاء لحالته ، وكيف يرثى « ابن عربى » لحالة شخص ويرغب فى أن يكون عليها ؟

كما نفهم أيضا كراهيته للفلسفة من هذه القصة التى يقصها

---

(١) ابن عربى ص ٤٢ .

فى كتاب التدبيرات الالهية « رأيت لبعض أهل الكفر فى كتاب سماه « المرتبة الفاضلة » رأيته بيد شخص بمرشانة الزيتون ، ولم أكن رأيته قبل ذلك ، فأخذته من يده وفتحته لأرى ما فيه ، فأول شيء وقعت عينى عليه قوله : وأنا أريد فى هذا الفصل أن ننظر كيف نصنع الها فى العالم .. فتعجبت من ذلك ورميت الكتاب الى صاحبه » (١) .

فاننا نرى أن « ابن عربى » حكم على ذلك الفيلسوف أنه من أهل الكفر وذلك يبين مدى ما كان يكنه لهذا العلم من احساس ، ومع ذلك فان « ابن عربى » لم يؤثر عنه التزمت والجمود ولكنه كان يناقش قضايا هؤلاء الفلاسفة فى هدوء ويرد على ما لم يقتنع بالمنطق .

مكانته فى العلم وشهادة العلماء له :

ولقد بعدت همة « ابن عربى » فى طلب العلوم وكانت له عزيمة لا تعرف الكلل ، وتكبد فى سبيل تحصيله كثيرا من المشاق ، وكان كالنحلة دائب الانتقال من روض الى روض ، حتى جمع فى ذلك ذخيرة شهد له بها القاصى والدانى ، وسيأتى بيان عن ذلك بعد .

وقد أجازه كثير منهم مثل « ابن عساكر » امام وقته فى علمه ودينه . والذى اشتغل عليه خلق كثير وتخرجوا على يديه وصاروا أئمة فضلاء وكان مسددا فى الفتوى — توفى فى العاشر من رجب سنة عشرين وستمائة بدمشق .

و « ابن الجوزى » الذى كان علامة عصره فى الحديث وصناعة الوعظ ، وقد صنف فى فنون عدة منها : زاد المسير فى علم التفسير .

---

(١) ابن عربى ص ٣١ .

أربعة أجزاء له ، وله فى الحديث تصـانيف كثيرة توفى سنة سبع وتسعين وخمسمائة .

و « الحافظ السلفى » أحد الحفاظ المكثرين رحل فى طلب الحديث ودخل ثغر الاسكندرية سنة ٥١١ وأقام به وقصده الناس من كل حدب ، وبنى له العادل وزير الخليفة الظافر مدرسة بالثغر سنة ٥٤٦ توفى سنة ٥٧٦ بالثغر .

واجازة هؤلاء الأعلام « لابن عربى » شهادة لها قيمتها ، لأنها تدل على مدى ما وصل اليه من مقدرة فائقة وبراعة لا نظير لها ، وتفوق لا حد له فى سـائر العلوم التى برع فيها هؤلاء الأعلام الأفاضل .

سلوك الطريق الصوفى ـ الرحلات التى قام بها

كان للبيئة التى نشأ فيها « سلطان العارفين » أثر كبير فى اتجاهه الصوفى فقد سبق الاشارة الى اصلاح أبويه وأعمامه وأخواله ، ثم من الله عليه بزوجة صالحة ، كانت نعم العون له على ارتياد الطريق الى الله .

وكان « ابن عربى » قد قلد أعباء وظيفة كاتب فى حكومة « أشبيلية » (١) ، ويذكر الشعرانى أن هذه الوظيفة كانت لدى بعض ملوك المغرب ، فيقول : « كان رضى الله عنه ـ أولا من الموقعين عند بعض ملوك المغرب » (٢) ويذكر صاحب نفح الطيب أنه « كتب لبعض الولاة ثم رحل الى المشرق » (٣) ويذكر ابن العماد فى شذرات الذهب نقلا عن المناوى أنه « كان يكتب الانشاء لبعض ملوك المغرب » (٤) » .

ولا تعارض بين هذه النصوص فى حقيقة الأمر ، فقد كانت أشبيلية ومرسية وغيرهما من المدن الأندلسية الشهيرة تحت سيطرة الموحدين ملوك المغرب .

---

(١) ابن عربى ص ٩ .
(٢) اليواقيت والجواهر ص ٧ .
(٣) نفح الطيب جـ ٧ ص ٩٣ .
(٤) شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٩٠ .

ولكنه سرعان ما ضاق بقيود الوظيفة ، وتاق الى الحرية ليتفرغ لما اختاره لنفسه على هدى من الله من زهادة وتقشف ، وقد كان ذلك فى حياة أبيه ، وساعده على ذلك مرض شديد أصابه فألزمه الفراش ، فلما برىء منه كان قد خلصت نفسه من شوائبها كالذهب الذى تهذبه النار ، وتهيأ للانصراف كلية الى حياته الجديدة ، ولكن تفرغه الكامل لها لم يتم الا بعد وفاة أبيه .

وكان فى ذلك الوقت فتى فى حوالى العشرين من عمره ، وكان قد سبق ذلك الانقطاع قيامه ببعض المجاهدات ومن بينها الزام نفسه الخلوة بين الحين والحين ، يدل على ذلك المحاورة التى تمت بينه وبين ابن رشد التى أشير اليها سابقا ، والتى أراد ابن رشد بواسطتها أن يجعل من « ابن عربى » موضوع دراسة وبحث .

وحبب الى « ابن عربى » العزلة ، فانقطع عن الناس وعاش بين المقابر . يقول الشعرانى « ثم انه طرقه طارق من الله عز وجل فخرج فى البرارى على وجهه ، الى أن نزل فى قبر فمكث فيه مدة ثم خرج » (١) . ويقول صاحب شذرات الذهب : « برز منفردا مؤثرا للتخلى والانعزال عن الناس ما أمكن ، حتى انه لم يكن يجتمع به الا الأفراد » (٢) .

ويحدث هو عن نفسه فى كتاب الفتوحات قائلا : « ولقد كنت انقطعت فى القبور مدة منفردا بنفسى ، فبلغنى أن شيخنا يوسف ابن خلف الكومى قال : ان فلانا — وسمانى — ترك مجالسة الأحياء وراح يجالس الموتى (٣) ، وقد حدثت محاورة بين هذا الشيخ وبين

---

(١) اليواقيت والجواهر ص ٨ .

(٢) شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٩٠ .

(٣) ابن عربى ص ١٣ .

« ابن عربى » انتهت باعتراف الشيخ بأن الذى يجالس الأموات هو الذى يعيش بين الأحياء لا الذى يعيش بين القبور . وحقا ذلك ، فكم من ميت حى ، وكم من حى ميت . ولطالما سمعنا هذا الأثر : الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا ، والقرآن الكريم يقول : « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (١) .

بدأ تحول « ابن عربى » الى الطريق الصوفى مبكرا ، وبدا يتتلمذ على كتب الصوفية ثم عقد العزم على التعرف الى رجالهم والبحث عن شيوخهم ، وأعانته مرآته الصافية على الانتفاع السريع بكل ما قرأ والافادة ممن لقى وعرف .

والمعرفة الصوفية ليس لها سوى مفتاح واحد ان فقده الانسان حرم ، ولو كانت فى يده حلقة بها مئات المفاتيح ، وهذا المفتاح هو العمل ، يصدق ذلك القرآن الكريم « واتقوا الله ويعلمكم الله » (٢) . والأثر الشريف : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

ولقد كان « ابن عربى » عاملا بما يعلم ، فتفتحت أمامه مغاليق العلوم ، وأعطته ما غمض من أسرارها ، وتمكن فى وقت وجيز أن يترجم عن مفهومات حيرت الفحول من الرجال ، وجعلته كعبة القصاد فى الوقت الذى كان هو يشد الرحال نحو كل من يسمع عنه أنه ذاق من هذا الطريق شيئا . وهذا هو التواضع الكريم الذى جعله الله حلية الكمل من الرجال .

ولذلك نراه قد كثرت رحلاته فى داخل الأندلس وخارجها ، وكلها رحلات لم يكن الهدف منها سوى لقاء الشيوخ وتحصيل العلم واكتساب المعارف وبناء الرجال .

وبالرغم من أن « ابن عربى » وصل الى منزلة عالية كريمة

(١) سورة ق ٢٢ .

(٢) البقرة ٢٨٢ .

الا أنه كان يعترف دائما بأن كل من يلقاه شيخ له ، فكان يقول : شيخى فلان ، ولقيت شيخى فلان ، وجاء لزيارتى شيخى فلان .

وشيوخ ابن عربى فى الطريق كثيرون ، وكل شيخ له مزية خاصة وذوق خاص والطريق الصوفى غاص بالأسرار وملىء بالعقبات ، وكل سر له طريق لا يمكن النفاذ اليه الا بارشاد يعرفه شيخ ولا يعرفه آخر . فمن أجل هذا لم يأنف ابن عربى من أن يتتلمذ على الشيوخ جميعا، وهذا الذى جعله يغرف من كل البحور ، ويفهم كل الاشارات ويترجم بمختلف الأسرار ولا يلتوى عليه أى مسلك ويشهد له العام والخاص .

فمن شيوخه الذين ذكرهم فى كتـــابه الفتـوحات « موسى البيدرانى » ويعده « ابن عربى » من الأبدال ، ويذكر أنه قدم اليه خاصـــة « أشـــبيلية » ليراه ، رغم أنه لم يكن قد بلغ بعد السادسة والعشرين من عمره ، وليس ذلك بغريب ، فليس التقدم بالسن ، فمن معانى كلمة « الشيخ » أنه من بلغ مرتبة أهل الفضل ولو صبيا .

ومن شيوخه أيضا « أبو عمران موسى بن عمران المارتلى » وكان منقطع القرين فى الورع والزهد والعبـــادة والعزلة ، وكان ملازما لمسجده داخل أشبيلية ، وكان الملوك يزورونه ولا يلتفت اليهم ، وله نثر ونظم فى الزهد مدون مشهور ، فمن نثره : كل مايفنى ماله معنى — من خف لسانه وقدمه كثر ندمه — من أعطاك رفده فقد منحك وده — ملك فؤادك من أفادك . ومن نظمه :

الى كم أقول ولا أفعـــــل	**وكم ذا أحـــوم ولا أنزل ؟**
وأزجـــر عينى فلا ترعوى	**وأنصح نفسى فلا تقبـــل ؟**
وكم ذا تعلل لى ويحهـــا	**بعل وسوف وكم تمطـــل ؟**
وكم ذا أؤمل طول البقـــا	**وأغفل والموت لا يغفـــل ؟**

توفى سنة ٦٠٤ هـ عن اثنين وثمانين سنة (١) . وكان «ابن عربى» يجل هذا الشيخ كثيرا ، ويذكر عنه أنه سيد وقته ، ويعترف بأنه هو الذى أرشده الى كيفية تلقي الالهامات الالهية .

ومنهم « أبو الحجاج يوسف الشبربلى » وهو شيخ معتقد له كرامات ظاهرة وكان ملازما لتلاوة القرآن .

ومن شيوخه « يوسف الكومى » العالم الورع المجاهد الذى كان يحث أتباعه على لزوم المجاهدة ، حتى يمكنهم اجتياز العقبات فى طريقهم الى الله .

ومنهم « أبو عبد الله بن المجاهد » و « أبو عبد الله بن قيسوم » وكلاهما من الشيوخ الأجلاء المدققين الذين بلغوا فى محاسبة النفس على الأقوال والأفعال مبلغا كبيرا ، وقد ترك كل هؤلاء أثرا فى نفس « ابن عربى » نظرا لما تختلف عليه مشاربهم وأذواقهم .

وقد رسم هو على ضوء لقائه للشيوخ طريقه ومذهبه ، وبواسطتهم إقد استنار سبيله ووضحت محجته ، ومضى فى طريقه لا يلوى على شىء ، مضيفا الى زاده مايراه نافعا له فى رحلته ومعينا له على وعورة الطريق . لذلك نراه يدقق فى محاسبة نفسه فلا يكتفى بمحاسبتها على الأقوال والأفعال كما فعل « ابن المجاهد وابن قيسوم » ولكنه يزيد عليهما فى التدقيق فيحاسب نفسه على الخواطر ، وتلك نهاية الورع ، وما أحسب أن وصل اليها أحد الا من كان فى مرتبة الصديقين .

ويقول « أسين بلاثيوس » عن « ابن عربى » : « انه عمل على تكوين روحه منذ سنوات شبابه بالزهد فى الشهوات نماذج رائعة فى الزهد قدمها زهاد فى أشبيلية على رأسهم جميعا يجدر أن نذكر عبد الله المفاورى » (٢) .

---

(١) المغرب فى حلى المغرب جـ ١ ص ٦٠٤ .

(٢) ابن عربى ص ١٧ .

و « أبو محمد عبد الله المغاورى » شيخ جليل له كلام رائع وتوجيهات كريمة منها قوله يوصي أبا الحسن الأشبيلي : « آمرك بخمس وأنهاك عن خمس ، آمرك باحتمال أذى الخلق ، وادخال الراحة على الاخوان وأن تكون أذنا لا لسانا ، والخامس أن تكون مع الناس على نفسك ، وأنهاك عن معاشرة النساء وحب الدنيا وحب الرياسة وعن الدعوى وعن الوقوع فى رجال الله » فما أجمله من كلام خرج من نفس صافية !

وما أجدر « ابن عربى » بالانتفاع بمثل هذه التوجيهات وهو الحريص على تحصيل الجيد من القول والنافع من العمل ، ليتخذ منهما دليله ومرشده .

ولقى من شيوخه « شعيب بن الحسين الأندلسى الملقب بأبى مدين » وقد دلت « ابن عربى » على لقائه خارقة من خوارقه العديدة (١) ، وقد شهد هذا الشيخ لابن عربى ولقبه بسلطان العارفين « وكلام الرجل أدل دليل على مقامه الباطن » (٢) .

وأبو مدين أحد الصوفية العظام وأصله من أشبيلية ، طوف سائحا فى الأرض وسكن « بجاية » مدة ثم « تلمسان » وكان من أهل العمل والاجتهاد وكان امام وقته ، وقد أقام مدرسة صوفية فى مدينة « بجاية » تخرج فيها الكثير من الأجلاء . وقد لقيه « ابن عربى » فى أثناء جولاته التى قام بها فى بلاد المغرب وكان يطلق عليه « شيخ الشيوخ » وقد خاض أبو مدين كثيرا من الأحوال ، وكان فى مقام التوكل لا يشق له غبار . توفى سنة ٥٩٠ أو ٥٩٤ على خلاف بتلمسان .

ومن الشيوخ الذين كان لهم تأثير خاص فى حياة « ابن عربى »

---

(١) طبقات الشعرانى ج ١ ص ١٣٣ .

(٢) طبقات الشعرانى ج ١ ص ١٦٣ .

الشيخ أبو العباس العرينى . ويذكر أسين بلاثيوس عنه : انه كان من الشيوخ المتوفرين فى اشبيلية على تربية الشباب واعـــدادهم ليكونوا محل نظر الله فى الأرض ، فكانوا يجتمعون لديه ، ويقرءون من علمه وينتفعون بزهده ، وكانت له هيمنة خاصة على مريديه ، ويعتبرونه جميعا أباهم وهم اخـــوة بين يديه ، يستشهد لذلك بتفسيره معنى «الأقربون» فى قوله تعالى «الأقربون أولى بالمعروف» بقوله : الأقربون هم الأقربون الى الله لا الأقربون فى الرحم . وهذا التفسير ذكره « ابن عربى » فى كتابه الفتوحات نقـــلا عن شيخه العرينى .

وتلقى « ابن عربى » عن هذا الشيخ كثيرا من التوجيهات ، ونقل عنه كثيرا من المعلومات وربما كانت تحدث بينه وبين شيخه مناقشات فى بعض الأحيان ، فيحتد فيها « ابن عربى » ؛ لأنه لم يكن قد أخذ بعد على ذلك النظام الذى وضعه شيخه العرينى لمريديه من وجوب التسليم المطلق للشيخ ، فيتدخل « الخضر » حينذاك لرد « ابن عربى » الى الطريق السوى ، وهو وجوب عدم معارضة الشيوخ ، وقد ذكر ابن عربى فى كتابه الفتوحات هـــذه الوقائع فى أكثر من موضع ، نذكر منها هذه الواقعة نقلا عن كتاب ابن عربى : « الخضر صاحب موسى ــ عليه السلام ــ أطال الله عمره الى الآن بخلاف علماء الرسوم لخبر صحيح تأولوه ، قد رأيناه مرارا واتفق لنا فى شأنه أمر عجيب ، وذلك أن شيخنا العباس العرينى ، جرت بينى وبينه مسألة فى حق شخص كان قد بشر بظهـــوره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى : هو فلان بن فلان ، وسمى لى شخصا أعرفه باسمه وما رأيته ، ولكن رأيت ابن عمته ، فتوقفت فيه ولم آخذ بالقبول ، أعنى قوله فيه ، لكونى على بصيرة فى أمره ، ولا شك أن الشيخ رجع سهمه عليه فتأذى فى باطنه ، ولم أشعر بذلك فى بداية أمرى ، فانصرفت عنه الى منزلى ، ولما كنت فى الطريق لقينى شخص لا أعرفه ، فسلم على ابتداء سلام محب

مشفق ، وقال لى يا محمد صدق الشيخ أبا العباس فيما ذكر لك عن فلان ، وسمى لى الشخص الذى ذكره أبو العباس العرينى . فقلت له : نعم وعلمت مأراد ، ورجعت من حينى الى الشيخ لأعرفه بما جرى ، فلما دخلت عليه قال لى : يا أبا عبد الله ، أأحتاج معك اذا ذكرت لك مسألة يقف خاطرك عن قبولها الى « الخضر » يتعرض اليك ويقول : صدق فلانا فيما ذكره لك ؟ ومن أين يتفق لك هذا فى كل مسألة تسمعها منى فتتوقف ؟ فقلت : ان باب التوبة مفتوح ، فقال : وقبول التوبة واقع ، فعلمت أن ذلك الرجل كان الخضر ، ولا شك أنى استفهمت الشيخ عنه : أهو هو ؟ قال : نعم هو الخضر » (١) .

ولا شك فى أن ظهور الخضر لابن عربى أمر له أهميته ، وهو لن دل على شيء فانمايدل على قوة مكانته ورفعة منزلته ، وعلى أنه سيكون ذا شأن عظيم فى الطريق ، والا لما كان ارشاده الى وجوب التسليم للشيوخ وعدم منازعتهم على يد الخضر الذى أخفى الله صورته عن الناس لحكمة تدق على الأفهام .

وقد عد بعض المحققين « الخضر » من شيوخ « ابن عربى » فقد كان له معه اجتماع كثير (٢) . وانطلق « ابن عربى » فى طريقه وقد وضح هدفه ، وهو يحاول الانتفاع بتوجيهات شيوخه والافادة من كل من يلقاه من أهل الطريق — وقد لقى كثيرا منهم — وكان ديدنه التواضع للجميع وخدمة الرفقاء ، وقد تعلم من ذلك علوما جمة ، واستفاد فوائد كثيرة ، فقد عرف كيف يسوس نفسه وكيف يربى ارادته وكيف يجمع همه وكيف يصبر فى الشدة وكيف يزهد عن ملك ويعف عن قدرة وكيف يجود بما عنده ويؤثر غيره

---

(١) ابن عربى ص ٢٣ .

(٢) نفح الطيب ج ٧ ص ١٥٨ .

على نفسه . ورفع ذلك من همته فرمى بقصده الى الله ، عن طريق الحب يعرفه ، أو عن طريق المعرفة يحبه .

ولم يأنف في طريق الصعود الى الله أن يتعلم من كل من يلقى ، صغيرا كان أو كبيرا ، ذكرا كان أو أنثى ، عظيما كان أو حقيرا .

وقد مر بنا كيف أنه خدم امرأة أدرك أنها عارفة بالله اسمها «فاطمة بنت ابن المثنى القرطبى» ووصل من اعزازها له وانقطاعه لخدمتها أن كانت تدعوه بابنها ، وتقول له : أنا أمك الالهية « ونور » أمك الترابية ، وقد مكث معها عامين يخدمها . كما عرف امرأة أخرى مسنة اسمها « ياسمين » وكان يعتبرها من الأواهين ، كما صاحب ، « أبا يحيى الصنهاجى » الضرير وهو من أصحاب الكرامات و « يوسف الأستجى » وكان من الأميين المنقطعين الى الله ، و « أبا عبد الله الشرفى » وكان من أصحاب الخلوات « وصالحا البربرى » وكان صوفيا سائحا كثير التجوال . يقول : « كان عندنا بأشبيلية رجل عابد حسن الصوت كثير الاجتهاد سريع الدمعة دائم العبرة كثير الفكرة والتهجد ، بت معه ليالى عدة ، فلم يكن يفتر ، فربما أسمعه فى بعض الأحايين ينشد بصوت غرد ، ودموعه تنحدر على خديه :

قطع الليل رجال ورجال وصلوه
رقدوا فيه أناس وأناس سهروه
لا يميلون الى النوم ولا يستعذبوه
فكأن النوم شيء لم يكونوا يعرفوه (١)

من هؤلاء جميعا تلقن « ابن عربى » فن الحكمة الصوفية ،

---

(١) محاضرة الأبرار ج ٢ ص ٢٣ .

وتلقى دروس الطريق وآدابها وكون لنفسه شخصيته الفذة التى اشرقت فى الميدان الصوفى ، وكان لها ذلك الانتاج الغزير الوافر الذى لا يكون الا لمن عمر الله أوقاتهم وبارك فيها . فكانت أيامهم الهيـــة موفورة الجنى مباركة الثمرات .

رحلاته فى داخل الأندلس وفى بلاد المغرب :

وبدأ « ابن عربى » مرحلة جديدة من حياته ، بدأ يســيح فى البلاد توقا الى ارواء ظمئه الى المعرفة ، وقد تعلم من تجاربه أن المعرفة بر لا ساحل له ، اذ كلما ازداد الانسان منها شربا ازداد ظمأ .

و « ابن عربى » شأنه شأن الراسخين من رجال التصوف ، فقد تصوف عن علم بعد ان تبحر فى علوم الشريعة وشهد له فيها كثير من اعلام الفقه والحديث والتفسير واللغة ، وهذه منزلة كفيلة وحدها أن ترفع من قدره بين أقدار الرجال ، ولكن ذلك وحده لم يكن كافيا لارضاء طموحه ؛ فقد كانت همته أبعد من ذلك ، وكان مثله كمثل حجة الاسلام الغزالى ، الذى سلك طريق التصوف بعد أن أروى ظمأه من كافة العلوم الأخرى مع فارق يسير ، يظهر فى غزارة انتاج « ابن عربى » فى علوم التصوف ، وغزارة انتاج الغزالى فى العلوم الأخرى . والسبب راجع الى تبكير « ابن عربى » فى ارتياد الطريق الصوفى ، أما الغزالى فلم يتصوف الا بعد أن أفنى زهرة شبابه فى العلوم الظاهرية .

والسياحة عنصر هام من عناصر الطريق الصوفى ، فمن طريقها يربى المرء ارادته ، ويهذب نفسه ، ويصـــحح عزمه ، ويوثق صلته بالله ، ويقهر دواعى نفسه التى يولدها الركون الى الاستقرار ، وفى السياحة اعانة على الفكر وحث على المعرفة واكساب للتجربة وأنس بالله والتجاء اليه واعتصام به ، لذلك لا نكاد نجد صـــوفيا الا وله سياحاته المتعددة ورحلاته المختلفة .

بدأ « ابن عربى » رحلاته فى داخــل بلاد الأندلس وفى بلاد المغرب العربى ، وكانت رغبته فى المعرفة رائده ، وكان لا يكاد يخلو بلد من البلاد التى رحل اليها من شيخ فاضل أو عالم جليل . وكان يتعلم من كل رحلة علما جديدا ، وكان يقيد كل ما يعن له من فوائد وفيوضات ومعارف .

بدأ رحلاته بزيارة مدينة « مورور » قبل سنة ٥٩٠ هـ وهناك التقى بشيخ صوفى عظيم اسمه « أبو محمد المورورى » وكان عقده التوكل ، وكانت له معه صحبة جميلة أثمرت ثمارا يانعة وفوائد رائعة .

ورحل الى مدينة « الزهراء » ثم الى « قرطبة » ثم ارتد الى « أشبيلية » ولقيه بها كثير من الشيوخ الذين تسامعوا بعلو كعبه فى الطريق الصوفى ، فقصدوا اليه طلبا للتعرف به والافادة من علمه وخبرته .

ولم يلبث « ابن عــربى » أن انطلق الى خارج الأندلس ميمما شطر المغرب العربى ، فذهب الى « تونس » فى حوالى سنة ٥٩٠ هـ ، ولكنه لم يطل اقامته بها فقد عاد الى « أشبيلية » فى نفس العام . وقد أفاد من رحلته هذه افادة كبرى ، فقد لقى فى تونس صوفيا كبيرا اسمه « أبو محمد عبد العزيز » الذى توطدت الصداقة بينه وبين « ابن عربى » كما لقى صوفيا آخر هو الشيخ « جراح ابن خميس الكتانى » من سادات القوم .

ورجع الى « أشبيلية » عن طريق محاذاته للشاطىء ، فمر على تلمسان ، وزار قبر خاله « يحيى بن يغان » الذى سبقت الاشارة إليه .

وفى العام التالى سافر الى « فاس » ثم عاد الى « أشبيلية »

مرة أخرى ، وفى عام ٥٩٣ هـ ارتد الى « فاس » وأقام بها فترة عاكفا على العبادة والمجاهدة وملاقاة الشيوخ الأجلاء من الصوفية ، أمثال الشيخ « أبى عبد الله محمد بن قاسم » امام مسجد الأزهر « بفاس » وكان عالما جليلا ، وله مصنفات مشهورة من بينها كتاب : المستفاد فى ذكر الصالحين من العباد ، وقد استمع « ابن عربى » الى هذا الكتاب من مؤلفه .

وقد تتلمذ على « ابن عربى » كثيرون فى « فاس » وكان يلتقى بهم فى مكانه المختار « بستان بن حيون » يستمعون الى محاضراته الصوفية التى كان يلقيها عليهم .

ثم ذهب الى « سبتة » والتقى هناك ببعض الصالحين ، وكان ذلك فى طريق عودته الى الأندلس سنة ٥٩٤ هـ ، وهو يريد عبور مضيق جبل طارق اليها .

وفى « غرناطة » التقى بشيخ جليل هو « أبو محمد عبد الله الشكاز » ويصفه « ابن عربى » بأنه من أكبر من لقيهم فى هذا الطريق ، ولم ير مثله فى الاجتهاد ، وكان ذلك اللقاء فى صدر سنة ٥٩٥ هـ .

وفى العام نفسه توجه الى مسقط رأسه « مرسية » ومنها توجه الى « المرية » التى كانت مركزا هاما من مراكز التصوف فى الأندلس ، ويبدو أن « ابن عربى » قد أقام فيها فترة طويلة يعكف على العبادة والتأليف ، ويلتقى بصديقه الصوفى « أبى محمد عبد الله الغزالى » تلميذ الشيخ « أبى العباس بن العريف » أحد أعلام التصوف ومؤلفيهم ، ومن الكتب التى ألفها « ابن عربى » فى المرية كتاب « مواقع النجوم » وهو من الكتب الهامة .

ولم يلبث فى عام ٥٩٧ هـ أن اتجه الى المغرب مرة أخرى ، والتقى فى « مراكش » بشيخ زاهد من شيوخ التصوف اسمه

« أبو العباس السبتى » ومن هناك انتقل الى « فاس » بناء على أمر الهى صدر اليه ليصطحب من هناك شخصا اسمه « محمد الحصار » الى المشرق .

هذه هى الرحلات التى قام بها « ابن عربى » فى داخل حدود الأندلس والمغرب والتى بدأت برحلتـــه الى « موروز » قبل سنة ٥٩٠ بقليل وانتهت برحلته الى « مراكش وفاس » فى عام ٥٩٧ هـ .

رحلاته الى المشرق :

بدأ « ابن عربى » رحلته الكبرى الى المشرق سنة ٥٩٨ هـ كما تقول المصادر . وتختلف وجهات النظر حول أسباب هـــذه الرحلة ، فبعضهم يرجعها الى أسباب سياسية تعود الى ما ساد البلاد فى المغرب من فتن واضطراب فى ذلك الحين ، بسبب أفول شمس الموحدين. يقول الدكتور جودت الركابى : « ولما اضمحل شأن الموحدين وضعف أمرهم بالمغرب والأندلس فى أوائل القرن السابع الهجرى ، واجتاحت الفتنـــة معظم البلاد والثغـــور الأندلسية .. غادر الأندلس فى تلك الفترة كثير من الكتاب والعلماء الذين توقعوا سوء المصير وآثروا العمل فى جو أكثر استقرارا وطمأنينة مثل الشيخ محيى الدين بن العربى شيخ المتصوفين الشهير وابن البيطار المالقى » (١) ..

ويرى صاحب كتاب « الشعر الأندلسى » أن السبب فى هجرة كثير من العلماء والشعراء ومنهم « ابن عربى » يرجع الى اضمحلال الأندلس الاسلامى تحت وطأة الاسترداد التى شاعت فى ذلك الوقت (٢) .

---

(٢) الشعر الأندلسى لاميلوغومس ترجمة حسين مؤنس ص ٣٦ .

(١) فى الأدب الأندلسى للدكتور جودت الركابى ص ٥٧ .

ولكن يبدو أن « ابن عربى » لم يكن مختارا فى القيام بهـــذه الرحلة ، ولكنها كانت توجيها الهيا ، وليس ذلك بغريب ، فان من صفت مرآتهم وارتقت أحوالهم اصبحت حركاتهم وســـكناتهم لا تصدر الا بناء على توجيه الهى يدركونه بأرواحهم وأذواقهم ، فقد تخلوا عن حظوظهم البشرية ، وارتقوا الى مستوى يجعلهم ربانيين يدخلون فى نطاق الأثر القـــدسى : عبدى أطعنى أجعلك ربانيا ، والربانى هو الذى يذكره القرآن الكريم بقوله : « ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » (١) .

رأى رؤيا فى « مراكش » يلقى اليه فيها الأمر بالتوجه الى مدينة « فاس » ومن هناك يصطحب شخصا اسمه « محمد الحصار » الى المشرق . ويستجيب ابن عربى للأمر ويلتقى بالحصار الذى يخبره بأنه رأى مثل هذه الرؤيا ، ويتجهان معا نحو « تلمسان » .

أما الرؤيا العجيبة التى تكشف عن مستقبل « ابن عربى » وعلو منزلته فهى التى رآها فى « بجاية » فى العام نفسه ، وهذه الرؤيا يقصها علينا نفح الطيب على لسان « ابن عربى » « رأيت ليلة أنى أنكحت نجوم السماء كلها ، فما بقى نجم الا أنكحته بلذة عظيمة روحانية ، ثم لما كملت نكاح النجوم أعطيت الحروف (وفى نسخة أعطيت البدور) فنكحتها ثم عرضت رؤياى هذه على من قصها على رجل عارف بالرؤيا بصير بها ، وقلت للذى عرضتها عليه : لا تذكرنى ، فلما ذكر الرؤيا استعظمها وقال : هـــذا هو البحـــر الذى لا يدرك قعره ، صاحب هذه الرؤيا يفتح الله تعالى له من العلوم العلوية وعلوم الأسرار وخواص الكواكب مالا يكون فيه أحد من أهل زمانه ، ثم

---

(١) آل عمران ٧٩ .

سكت ساعة وقال : ان كان صاحب هذه الرؤيا فى المدينة ، فهو ذاك الشاب الأندلسى الذى وصل اليها » (١) .

وبدات رحلته الكبرى الى المشرق فى العـــام التالى ٥٩٨ هـ وتوقف فى «تونس» فترة طويلة بلغت حوالى تسعة شهور ، استأنف بعدها السفر قاصدا مكة المكرمة ، ومر فى طريقه « بمصر » ، ولكن اقامته لم تطل بها فى هذه المرة ، وفى « مصر » فقد صاحبه الذى أمر باصطحابه ، فقد مات ودفن بها ، وواصل « ابن عربى » رحلته الى مكة وحيدا .

وكانت شهرته قد سبقته الى هنـــاك ، وتوافد عليه الأولياء والعلمـــاء من كل فج يطلبون رؤيتـــه والافادة من علمه وفضله ومعرفته .

وتوثقت الصـــلة بينه وبين « مكين الدين أبى شجاع زاهد ابن رستم بن أبى الرجا الأصفهانى » امام مقـــام ابراهيم . ولهذا الشيخ أخت عالمة مسنة أطلق عليها « ابن عربى » لقب : شيخة الحجاز وفخر النساء : وله ابنة من أرباب الأحوال والمقامات . جمعت بين الحسنين الظـاهرى والمعنوى ، ووصفها بأنهـــا من العابدات العالمات السائحات الزاهدات ، وأطلق عليها لقب : شيخة الحرمين ومربية البلد الأمين ، أما اسمها فهو « النظام » .

وكانت هذه الفتاة آية من آيات الله فى العلم والفهم والابانة ، وكان من الطبيعى أن تدور مناقشات علمية صوفية بين «ابن عربى» وبين أفراد هذه الأسرة الكريمة . ويعجب بهذه الفتاة التى وصلت فى المعرفة حدا كبيرا ، وكانت مصـــدر الهـــام أوحى له بديوان « ترجمان الأشواق » الذى نسج فيه قصائده الرمزية على طريقة الصوفية التى يتغزلون فيها بانسان حى ، ولا يقصدون من ورائه

---

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ١٥٠ .

سوى الاشارة الى معان علوية دقيقة ، ثم لم يلبث أن وضع شرحا لذلك الديوان خوفا من أن يسبق الى ذهن أحد فهم خاطىء لا يتناسب وجلال هذه المقطوعات الصوفية الرائعة .

وأقام « بالطائف » قريبا من « مكة » فترة من الوقت وعاد الى مكة ، ولقى بها بعض الصوفية ، والتقت روحه مع روح بعض الذين فارقوا الحياة الدنيا من الأولياء والصالحين والصديقين .

وفى عام ٦٠١ هـ رحل الى « بغداد » ، ولكنه لم يقم بها سوى اثنى عشر يوما استأنف بعدها السفر الى « الموصل » للقاء شيخ من شيوخ الصوفية اسمه : « على بن عبد الله بن جامع » وكانت لهذا الشيخ روح خاصة وتعلق شديد بالخضر .

واتجه « ابن عربى » صوب « مصر » فى سنة ٦٠٣ هـ حيث أقام هناك فى صحبة بعض الصالحين ، يعمرون أوقاتهم بالعبادة والطاعات فى أحد البيوت « بزقاق القناديل » بالقاهرة ، وكان ذلك فى خلافة الملك العادل ، وقد تعرض لمحنة سنعرض لها فيما بعد .

ومن القاهرة توجه الى « الاسكندرية » حيث لم يقم فيها طويلا ، ثم غادرها الى مكة .

ويذكر الدكتور « على صافى حسين » أن « ابن عربى » التقى « بأبى الحسن الصباغ » فى أرض الصعيد بمصر ، فى أثناء ذهابه الى مكة ، وحضر مجالسه ، و « الصباغ » شاعر صوفى مشهور ، ولكن شهرته لم تصل الى شهرة غيره ممن جاوزوا مواطنهم الأصلية وساحوا فى البلاد ، واسمه « على بن أحمد بن اسماعيل ابن يوسف » وكنيته : أبو الحسن الصباغ وأصله من مدينة « قوص » وتوفى سنة ٦١٣ هـ ، واشتهر بالزهد والورع والعمق فى التصوف ، وأنه كان من خير شيوخ التصوف تربية ، وأستاذه

الشيخ « عبد الرحيم القناوى » أكبر رجال التصوف شهرة وأعظمهم قدرا وأبعدهم عينا فى القرن السادس الهجرى(١) .

والتقى فى مصر أيضا بسلطان العاشقين « ابن الفارض » على رأى ، وسيأتى حديث عن ذلك بعد .

وأقام الشيخ الأكبر فى « مكة » عقب رحيله من مصر اليها فترة لم تطل ، فسرعان ما أخذ أهبته ، بناء على التوجيه الروحى الى مواصلة السياحة ، فرحل الى آسيا الصغرى وحط رحاله فى « قونية » سنة ٦٠٧ ، وكانت « قونية » عاصمة الاقليم الخاضع للمسلمين فى الدولة البيزنطية ، وقد استقبل هناك استقبالا حافلا ، وخرج الملك بنفسه لاستقباله احتراما له وقياما بواجب الضيافة، وأهداه دارا تقدر المصادر قيمتها بمائة ألف قطعة من الفضة ، ولكنه تصدق بها .

وربى فى « قونية » كثيرا من المريدين ، على رأس القائمة منهم « صدر الدين القونوى » الذى كان من أحب تلاميذه اليه ، والذى كان له فضل كبير فى تيسير تلقى علوم أستاذه للمتعلمين ، وفى حمل لواء الدفاع عنه ضد المهاجمين والناقدين .

ولم يستقر فى « قونية » طويلا ، فقد واصل تجواله فى آسيا الصغرى ، واستمر فى هذه الرحلة ما يقرب من عام ، مر فى خلاله بكثير من المدن الهامة فى الأناضول مثل « قيصرية » و « ملطية » و « سيواس » و « أرزن الروم » وقد كانت آسيا الصغرى تطلق على « أرمينية » و « تركيا والأناضول » .

ثم لم يلبث أن دخل « العراق » فزار « حران » فى نفس

(١) الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى ص ١٢٠ . الدكتور على صافى حسين .

العام يصحبه فى هذه الرحلات بعض اخوانه من أهل الطريق ، فيأنسون فى سياحاتهم أشد ما يكون الأنس ، وينعمون بما يتلقونه من فيض الهى ومدد روحى ، ولقد أشار « الشيخ الأكبر » فى كتابه « الفتوحات » الى هذه الرحلة بقوله يمجد أحد اخوانه الذى سره منه حسن بره بأمه وعنايته بها : « أعرف ذلك الشخص بعينه وصحبته وكان يعظمنى ويرى لى كثيرا ، واجتمعت به فى « دمشق » وفى « سيواس » وفى « ملطية » وفى « قيصرية » ، وخدمنى مرة ، وكانت له والدة كان بارا بها ، واجتمعت به فى « حران » فى خدمة والدته ، فما رأيت من يبر أمه مثله ، وكان ذا مال ، ولى سنون فقدته من دمشق ، فما أدرى هل عاش أو مات »(١) .

وفى عام ٦٠٨ التقى «بالشهاب السهروردى» فى بغداد « حين رحل اليها بعد انتهاء رحلته فى «آسيا الصغرى» مارا « بدنيسر » فى ديار بكر ، وشاهد ماء الفرات وقد جمد تحت برد الشتاء القارس فى أقصى الشمال حتى عاد « أرضا تمشى عليه القوافل والناس والدواب ، والماء تحت ذلك الجليد حار »(١) .

و « السهروردى » كان فى ذلك الوقت شيخ الصوفية فى « بغداد » ، وقد وصل فى التصوف الى منزلة لا تدانيها منزلة ، ولذلك كان حرص « ابن عربى » على لقائه شديدا .

والصوفية لهم تقاليد خاصة فى مقابلاتهم ، وهى تختلف من شخصية الى أخرى ، ولكنها تقاليد لها احترامها ، فمن تقاليد بعضهم فى اللقاء الصمت ، ولكنه صمت أبلغ من الكلام . وهذا ما حدث بين « ابن عربى » و « السهروردى » حين تقابلا ، كان

---

(١) ابن عربى ص ٦٨ .

بينهما صمت باللسان ، ولكن كان هناك تخاطب بالجنان ، خرست الألفاظ وتحدثت اللحاظ ، ومكثا هكذا مدة طويلة ، وانصرف كل منهما دون أن ينبس ببنت شفة . وحين سئل « ابن عربى » عن « السهروردى » بعد ذلك أجاب بأنه : مملوء سنة من فرقه الى قدمه . ولما سئل « السهروردى » : ما تقول فى « ابن عربى » ؟ قال : انه بحر الحقائق (١) . .

و « السهروردى » هو شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد ابن عبد الله بن عمويه « محمد » السهروردى كان امام وقتـه لسانا وحالا ، ولد سنة ٥٣٩ هـ وتوفى « ببغداد » سنة ٦٣٢ هـ ومن شعره الذى يدل على صفاء روحه قوله على طريقة الرمز بالخمـر :

لا تسقنى وحـــدى فما عودتنى
أنى أشـح بهـا على جـلاسى
أنت الـكريم ولا يليق تكـرما
أن يصـبر النـدماء دون الكاس

وارتفعت منزلة « ابن عربى » فى « بغداد » ارتفاعا عظيما ، وكثر التلاميذ من حوله ، وتطايرت شهرته الى كل مكان ، ولعله وجد فى « بغداد » أنسا روحيا جعله يركن الى الاستقرار فيها فترة من الزمن ، قبل أن يتركها عائدا الى « مكة » فى سنة ٦١١هـ .

ولم يقم فى « مكة » طويلا ، ففى رمضان سنة ٦١٢ هـ سافر الى « قونية » مرة أخرى ، ثم تركها الى « حلب » فى السنة التى تليها ، وصادف لدى أميرها تكريما عظيما جعله مقصد أصحاب الحاجات والمظالم .

---

(١) ابن الفارض سلطان العاشقين ص ٨٦ .

ويسافر الى « حمص » حيث وجد تكريم سلطانها له لا يقل عن تكريم غيره من الملوك والأمراء الذين سعدوا بلقاء « ابن عربى » فى ممالكهم ، وأراد « أسد الدين شيركوه » سلطان « حمص » أن يظفر بابقائه عنده نهائيا ، بأن يجعله يتخذ من « حمص » دار إقامة له ، فأمر له بعطاء يومى يقدر بمائة درهم ، ولكن كيف يقبل العصفور الطليق البقاء فى قفص ولو كان من ذهب ؟ .

ولو كان « ابن عربى » هدفه الدنيا وطالب الأمان لوجد ضالته فى كل مكان ذهب اليه وحل به ، ولكنه كان قد ملك عنان الزهد ، وانصرف بكليته عن الدنيا التى نظر اليها من وجهة نظر القرآن الكريم حيث يقول : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم .. » (١) فلم يلبث أن انطلق كعادته محلقا فى فضاء الكون الواسع تصرفه القدرة حسبما تريد ، ثم غادرها سائحا فمر « بملطية » وهناك ولد له غلام فى رمضان سنة ٦١٨ هـ .

ولكن هذه الحياة المضنية والتجوال المستمر والجهد المتواصل، فى ظل نظام صارم من الزهد والتقشف وملازمة العبادة والسهر كان لكل ذلك أثر كبير فى توجه الشيخ الأكبر الى « دمشق » ليستقر نهائيا بها منذ سنة ٦٢٠ هـ . حتى وافته منيته المحتومة، فلبى نداء ربه الكريم وسعد بجواره هنيئا فى سنة ٦٣٨ هـ .

وقد كان اختياره « دمشق » لتكون مقرا نهائيا له اختيارا مبنيا على هدى من توجيه الرسول الكريم ــ صلوات الله عليه وسلامه ــ الذى ثبت عنه أنه قال : عليكم بالشام ؛ فانه خيرة الله من أرضه واليها يجتبى خيرته من عباده (٢) .

---

(١) سورة الحديد ٢٠ .

(٢) ابن عربى ص ٨٥ والعبارة منقولة من الفتوحات ج ٤ ص ٤٦٩ .

وفى دمشق بشره النبى صلى الله عليه وسلم بتحقيق أمنيته فى اخراج « فصوص الحكم » الذى يقول فى مقدمته : « .. رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مبشرة أديتها فى العشر الأخر من المحرم سنة سبع وعشرين وستمائة بمحروسة دمشق ، وبيده صلى الله عليه وسلم كتاب ، وقال لى : هذا كتاب فصوص الحكم ، خذه وأخرج به الى الناس ينتفعون به ، فقلت : السمع والطاعة لله ولرسوله وأولى الأمر منا » (١) .

حياة حافلة :

على ان استقرار الشيخ الأكبر فى « دمشق » لم يكن يعنى خلوده الى الراحة فقد ظل عاكفا على مجاهداته فى العبادة وتآليفه فى علوم التصوف حتى آخر نفس من حياته ، وبذلك يمكن أن ندرك أن حياة « ابن عربى » كانت حافلة بجلائل الأعمال منذ الأيام الأولى حتى الأيام الأخيرة منها .

لقد كانت هذه الحياة سلسلة متواصلة الحلقات من الرحلات التى لم تكد تنتهى واحدة منها حتى تبدأ أخرى ، ولم تكن هذه الرحلات الا هادفة دائما الى تحقيق أغراض كريمة ، وفى مقدمتها تحصيل المعارف أو لقاء الشيوخ أو تربية المريدين ، وفى أثناء ذلك كانت تظهر له مؤلفات نافعة تنم عن عبقرية فريدة فى نوعها .

واذا تتبعنا خطوات سياحته يمكن أن نقف على أحداث هامة فى حياته ارتبطت بهذه السياحات ارتباط الأسباب بمسبباتها . ولنضرب لذلك بعض الأمثلة :

١ ــ كانت رحلته الى مكة فى فتراتها المتعاقبة موحية له بتأليف

---

(١) شرح القاشانى على فصوص الحكم ص ١٠ .

كتب من اهم كتبه التى كان لها دوى هائل فى الأوساط العلمية والصوفية والأدبية .

منها « ترجمان الأشواق » الذى ألفه فى سنة ٥٩٨ هـ ، وتذكر دائرة المعارف الاسلامية عنه ما يأتى : « وتعرف «ابن عربى» أثناء اقامته بمكة عام ٥٩٨ هـ بامرأة عالمة من تلك المدينة ، ولما عاد الى مكة عام ٦١١ هـ نظم مجموعة صغيرة من الأشعار الغزلية أشاد فيها بعلم هذه المرأة وجمالها الفتان وما كان بينه وبينها من حب ، وفى العام التالى رأى أنه من المفيد أن يتبع أشعاره بشرح صوفى ، وقد نشر هذه الأشعار وشرحها وترجمها الى الانجليزية نيكلسون »(١) .

ولكن الحقيقة أن هذه القصائد ألفت فى عام ٥٩٨ هـ ، وليس فى عام ٦١١ هـ ، وأن الشرح هو الذى كان فى عام ٦١١ هـ . يذكر ذلك « ابن عربى » نفسه فى مقدمة « ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق » حيث يقول : « لما نزلت مكة سنة خمسمائة وثمان وتسعين ألفيت بها جماعة من الفضلاء .. ولم أر فيهم مع فضلهم مثل الشيخ العالم الامام بمقام ابراهيم عليه السلام نزيل مكة مكين الدين أبى شجاع .. وكان لهذا الشيخ رضى الله عنه بنت عذراء طفيلة هيفاء تقيد النظر وتزين المحاضر وتحير المناظر تسمى « بالنظام » من العابدات العالمات السائحات الزاهدات شيخة الحرمين .. فراعينا فى صحبتها كريم ذاتها مع ما انضاف الى ذلك من صحبة العمة والوالد فقلدناها من نظمنا فى هذا الكتاب أحسن القلائد »(٢) .

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة ابن عربى ج ١ .

(٢) ذخائر الاعلاق فى شرح ترجمان الأشواق ص ٤ .

وقد أثبت ذلك « آسين بلاثيوس » في كتابه « ابن عربي » حيث يقول : « انه في نفس السنة سنة ٥٩٨ بلغ الغاية من رحلته ، اذ بلغ مكة وسرعان ما ذاع صيته في هذه المدينة المقدسة ، وبدأ العلماء والصالحون يتوددون اليه ، ومن بين هؤلاء الامام الموكل بمقام ابراهيم واسمه « أبو شجاع » الذى انعقدت بينه وبين « ابن عربي » مودة وثيقة ، وكانت لهذا الامام بنت ذات جمال ، فأوحت الى ابن عربي بموضوع كتاب من أشهر كتبه هو ترجمان الأشواق . ثم يقول : نراه في سنة ٦١١ هـ لا يزال في مكة عاكفا على عبادته المعتادة في الكعبة ويكتب شرحه على ترجمان الأشواق »(١) .

ولسنا بصدد الدفاع عن « ابن عربي » في قصائده تلك التي أثارت حوله ثائرة الفقهاء والمتشككين ، فان حياة الشيخ الأكبر نفسها تضعه فوق مستوى أى شبهة من الشبهات وتدافع عنه ، والمنهج السلوكي الذى اختاره لنفسه قد جعله زاهدا في كل متعة من متع الحياة رخصت أو غلت ، وليس من المستساغ أن يقبل هذا السائح الرامي بقصده الى الله أن يتغزل غزلا حسيا في فتاة كان هو في ضيافتها وضيافة أبيها ، فان لم يتناف هذا مع صلاحه وصلاحها فانه يتنافى مع طبيعته كعربي جواد شهم فتى ينتسب الى أرقى أرومة من أرومات العرب مجدا واباء وشهامة ، وهى أرومة طيىء .

وان هذه الخواطر التى حاكتها أخيلة المهاجمين هى التى جعلته يسارع في تأليف شرح لهذه القصائد الصوفية الغزلية ، التى نحا فيها منحى الرمز الصوفى الذى دأب الصوفية على

---

(١) ابن عربي ص ٥٧ .

استعماله منذ أن تطور التصوف الى أذواق ومواجيد وانطلق الصوفية بعواطفهم نحو الله ، ولكنهم لم يتمكنوا من أن يصرحوا بذلك فرمزوا عن حبهم لله بالغزل الحسى ضنا بأسرارهم وحفاظا على معانيهم ، ولذلك نرى ابن عربى يقول : « وقد شرحنا من ذلك نظما لنا بمكة سميناه ترجمان الأشواق وشرحناه فى كتاب سميناه الذخائر والأعلاق بسبب اعتراض بعض فقهاء حلب علينا ، فى كوننا ذكرنا أن جميع ما نظمناه فى هذا الترجمان انما المراد به معارف الهية وأمثالها ، فقال : انما فعل ذلك لكونه منسوبا الى الدين ، فما أراد أن ينسب اليه مثل هذا الغزل والتشبيب ، فجزاه الله خيرا لهذه المقالة ، فانها حركت دواعينا الى الشرح فانتفع به الناس ، فأبدينا له ولأمثاله صدق ما نويناه وما ادعيناه ، فلما وقف على شرحه تاب الى الله من ذلك ورجع »(١) .

ولكن الدكتور زكى مبارك يتابع دائرة المعارف الاسلامية فى فهمها عن ابن عربى من أنه كان يقصد الغزل الحسى ، وذلك فى كتابه التصوف الاسلامى فى الأدب والأخلاق ويقول : انه حين أراد أن يوجه هذه القصائد وجهة صوفية ارتكب كثيرا من التعسف ، وهذا القول له خطورته ، فابن عربى مصدق في قوله ، ووقائع حياته تؤيده يقول الأستاذ محمد ابراهيم الجيوشى : « ومن البين لكل من له صحبة فى الشعر الصوفى أنه يتعذر كثيرا على دارسه التمييز بين هذا الضرب من الشعر وبين الشعر الغزلى ، هل هذا قيل فى معشوقة من البشر أو منشودة من السموات ؟ حتى أن ابن عربى اضطر الى كتابة شرح لتوضيح الغرض من أشعاره ولازالة ما علق بالأذهان من أنها قيلت تشبيبا بامرأة »(٢) .

---

(١) ابن عربى ص ٧٥ .

(٢) بين التصوف والأدب لمحمد ابراهيم الجيوشى ص ٨٢ .

ولو صح قول الدكتور زكى مبارك عن ابن عربى لصح اطلاقه على كل شاعر صوفى له شعر غزلى ، ولصح عن رابعة العدوية التى يطلق عليها شهيدة العشق الالهى أن معشـــوقها انسان فى تلك الأشعار الرائعة التى وقفت أنفاس المحبين حولها لاهثة .

وليس هناك تعسف فى شرح ترجمان الأشواق ولكنها المعانى العميقة والأسرار الالهية التى لا زالت تجد صيانتها فى قلم ابن عربى عن الابتذال رغم الشرح . وستظل كذلك فى صون وحفاظ حتى ولو وضع حولها الشارحون ألف شرح وشرح .

ومن كتبه الهامة فى « مكة » الفتوحات المكية الذى يقول عنه الشعرانى : انه بعد أن ألفه وضعه فوق الكعبة عاما كاملا ، ثم بعد ذلك تناوله فوجده بالحالة التى وضعه عليها لم تؤثر فيه شمس ولا أمطار و لارياح (١) .

ويعتبر تأليف هذا الكتاب صدى لما وصل اليه « ابن عربى » من منزلة روحية عظيمة وكما يقرر هو أن ما ورد فيه كان فيضا الهيا ألقاه الله فى روعه فترجم عنه فى هذه الأجزاء الضخمة ذات الستين والخمسمائة فصل .

وكتاب الفتوحات ــ الذى نرجو أن نتحدث عنه فيما بعد ــ له أثره الخطير بين الصوفية ويعـــد من الكتب الرئيسية فى علم التصوف .

٢ ــ مجيئه الى « مصر » فى سنة ٦٠٣ كان سببا فى اثارة ثائرة الفقهاء عليه حتى أوغروا عليه صدر السلطان العادل ، وهموا بأن يبطشوا به لولا أن قيض الله له من كان سببا فى انقـــاذه من هذه الفتنة التى أوشكت أن تعصف به .

---

(١) اليواقيت والجواهر ص ١٢ .

وقصة ذلك أنه حين قدم القاهرة نزل فى دار بها جماعة من الصوفية فى « زقاق القناديل » والتأم شمل هؤلاء حول ذكر الله والتزام عبادته على نحو خاص أدى الى ظهور بعض الخوارق على أيديهم ، وفى ليلة انبعثت من أجسام الذاكرين أنوار مضيئة بددت ظلام الحجرة ورأى « ابن عربى » شخصا يخاطبه بلسان عذب فصيح قائلا : « اعلم أن الخير فى الوجود والشر فى العدم ، أوجد الانسان بجوده وجعله وحدانيا فى وجوده ، تخلق بأسمائه وصفاته وفنى عنها بمشاهدة ذاته ، فرأى نفسه بنفسه وعاد العدد الى أسه فكان هو ولا أنت » .

وقد فهم « ابن عربى » هذه الاشارات وحاول أن ينظم حولها شعرا يترجم عن معانيها ، ويبدو أن عوام الصوفية لم يدركوا جلال هذه المعانى فنقلوها عفوا أو تباهيا الى أسماع الفقهاء الذين يغارون على السنة ، ولعل ما كان قد شاع من أشعار ترجمان الأشواق قبل كتابة شرحها قد وصل أيضا الى أسماع هؤلاء فأضيف هذا الى ذاك ، وأوصلوه الى الملك العادل متهمين « ابن عربى » بالكفر والثبور وعظائم الأمور ، طالبين منه اهدار دمه حتى يكون عبرة لغيره .

ولكن الغريب أن « ابن عربى » لم يتأثر بذلك ولم يتزعزع ايمانه، وكان ذلك بسبب توقعه لما يحدث له وتوطينه النفسى على الصبر على ذلك . جاء فى شذرات الذهب : « وقد أوذى الشيخ كثيرا فى حياته وبعد مماته بما لم يقع نظيره لغيره ، وقد أخبرهم عن نفسه بذلك . وذلك من غرر كراماته . فقد قال في الفتوحات : « كنت نائما فى مقام ابراهيم ، واذا بقائل من الأرواح يقول لى عن الله : ادخل مقام ابراهيم انه كان أواها حليما ، فعلمت أنه لابد أن يبتلينى بكلام فى عرضى من قوم فأعاملهم بالحلم قال : ويكون أذى كثيرا فانه جاء

بحليم بصيغة المبالغة ، ثم وصفه بالأواه ، وهو من يكثر التأوه لما يشاهد من جلال الله »(١) وقد وطن الشيخ الأكبر نفسه على الصبر لهذا الأذى حتى يكون جديرا بالتخلق بمقام الخليلية .

يقول مؤلف كتاب « ابن عربى » ومن حسن الحظ فى هذه المناسبة أن هذه الاتهامات لم تلق أذنا سميعة عند الملك العادل لسياسته الحرة السمحة ، وكانت توصية من جانب الشيخ أبى الحسن البجائى صديق ابن عربى ، كانت هذه التوصية كافية لتفسير مذهب ابن عربى فى وحدة الوجود تفسيرا رمزيا فأمر باطلاق سراحه »(٢) .

ولم تثن هذه المحنة عزيمة « ابن عربى » ولم تعقه عن طريقه ؛ لأنه عرف هذا الطريق وأدرك نهايته وأيقن بسلامته ، واستهان بكل خطورة فيه .

هل التقى ابن عربى بابن الفارض ؟ :

شىء آخر فى مصر يعد من الأحداث الهامة فى حياة الشيخ الأكبر ذلك هو لقاؤه بابن الفارض .

كان ابن الفارض معاصرا لابن عربى ، وان اختلف موطن كل منهما . فقد ولد ابن الفارض فى مصر سنة ٥٧٦ هـ ونشأ بها فى ظل الدولة الأيوبية ورحل الى مكة وقضى بها خمسة عشر عاما ، رجع بعدها الى القاهرة حيث مكث بها حتى وافته منيته سنة ٦٣٢ هـ بعد أن بلغ فى العلوم اللدنية والصوفية مبلغا كبيرا ، وقد ضمن خلاصة معرفته أشعاره التى سرت مسرى الشمس ، ووضع حولها الشراح كثيرا من الشروح والتعليقات وأطلق عليه من أجلها « سلطان العاشقين » وكان أهم أشعاره قصيدته « نظم السلوك » (٣) .

---

(١) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٠ .

(٢) ابن عربى ص ٦٥ .

(٣) راجع عمر بن الفارض سلطان العاشقين ص ١٢٠ ، ص ١٢٧ .

ولقد أشارت بعض المصادر اشارات طفيفة حول امكان هـذا اللقاء ، فقالت : ان محيى الدين بن عربى طلب من ابن الفارض أن يأذن له فى شرح تائيته الكبرى فأجاب ابن الفـارض : بأن كتابك الفتوحات المكية شرح لها ، ومن هذه المصادر ما نقله المقرى فى نفح الطيب عن « المقريزى » في ترجمته لعمر بن الفارض (١) .

ولكن تفصيلات هذا اللقاء لم يتعرض لها أحد ، حتى يمكن معرفة الزمان والمكان وبقية ما دار بين هذين الشيخين من حديث ، مما جعل بعض المهتمين فى العصر الحديث بدراستهما يغفلون هذه الحادثة اطلاقا ، كما فعل « أسين بلاثيوس » فى ترجمته « لابن عربى » فانه برغم تعرضه لبعض التفصيلات الدقيقة لحياته لم يتعرض لذكر واقعة لقائه لابن الفارض ، وان كان قد ذكر عن « ابن الفارض » أنه بلغ مرتبة عليا فى التصوف والارتفاع فى قلوب المسلمين ، وذلك حينما تحدث عن شهرة « ابن عربى » « الذى طبقت شهرته بلاد المشرق كلها ، لا ينافسه فى شهرته غير صوفى آخر معاصر له هو عمـر بن الفارض الشاعر المصرى الصوفى المشهور »(٢) .

ويجوز أن يقال : ان منهج « أسين بلاثيوس » فى ترجمته لابن عربى يعتمد على ابن عربى نفسه فى كتبه، ولا سيما كتاب الفتوحات لأنه يقول فى مقدمة كتابه : « حياة الصوفى المرسى ابن عربى وهى موضوع القسم الأول من هذه الدراسة قد استخلصناها مما ورد من نصوص تتعلق بحياته فى كتبه خصوصا فى كتاب الفتوحات المكية ، ودون أن نهون من شأن المعلومات القليلة التى يقدمها لنا من ترجموا لحياته فاننا نعتقد ان ما قدمه لنا ابن عربى نفسه أكبر أهمية » .

---

(١) نفح الطيب جـ ٧ ص ١٠٧ .

(٢) ابن عربى ص ٨٥ .

و «ابن عربى» لم يتحدث عن هذا اللقاء بينه وبين«ابن الفارض» كما تحدث عن غيره من اللقاءات التى تمت بينه وبين شيوخ كثيرين.

وكما أغفل « أسين بلاثيوس » هـــذه الواقعة أنكرها غيره من المستشرقين مثل « نيكلسون » « وماسينيون » يذكر ذلك الدكتور محمد مصطفى حلمى قائلا : « ومن هنا ذهب المستشرق الانجليزى نيكلسون الى أن ابن الفارض وابن عربى لم يلتقيا قط ، كما ذهب الى مثله المستشرق الفرنسى الأستاذ ماسينيون ، وذلك فى محاضرة ألقاها بقاعة الجمعية الجغرافية عن ابن الفارض والششترى فقد استبعد أن يكون ابن عربى فى زيارته لمصر قد عرف ابن الفارض ، وان كان كل منهما قد أحس بوجـــود صاحبه فى عالم الشعر والتصوف »(١) .

والدكتور مصطفى حلمى يذكر ذلك بعد قوله : « نحن لا ننكر زيارة ابن عربى لمصر أو المامه بها ، ولكن الذى لا نستطيع التثبت منه هو ان يكون ابن عربى قد التقى حقا بابن الفارض ونشأت بينهما صلة شخصية تبودلت فيها الآراء الصوفية والأذواق الروحية ، اذ ليس ثمة ما يثبت هذه الصلة اثباتا قاطعا » .

ونحن لا يمكننا اضافة شىء جديد الى ذلك ، ولكن يمكن أن نذهب الى رأى الذى يثبت امكانية هذا اللقاء وحـدوثه ، مستمدين من حرص « ابن عربى » الزائد على لقاء الشيوخ دليلا قويا على حدوث هذا اللقاء ؛ فان المتتبع لرحلات هذا الشيخ الجليل يرى مدى شغفه بالتعرف الى رجال الوقت من الصوفية ، وفى كل مكان يحل فيــه يبحث عمن يرى أنهم محل نظر الله فى الأرض . وابن الفارض لم يكن شيخا مغمورا من شيوخ الصوفية ، ولكنه كان علما من أعلامهم تشد اليه الرجال من كل مكان ، فليس من المعقول أن تسنح لابن عربى فرصة ثمينة كهذه ولا يغتنمها وهى فرصة وجوده فى القاهرة .

(١) ابن الفارض سلطان العاشقين ص ٩١ .

على أن هذا اللقاء قد لا يكون حدث فى القاهرة ، اذ من الجائز حدوثه فى مكة ، ونحن نعلم أن ابن الفارض « قضى فى ظل الحجاز أشرق أيامه بأنوار الفتح فيما بين سنتى ٦١٣ هـ و ٦٢٨ فى أواخرها أو ٦٢٩ هـ فى أوائلها » (١) وابن عربى يقينا كان يلم كثيرا بمكة في هذه السنين قبل رحيله نهائيا الى دمشق سنة ٦٢٠ ، ففى هذه السنوات السبع السابقة على استقراره فى دمشق لا يبعد أن يكون قد حدث لقاء بين الشيخين العظيمين ، ولعل ذلك هو الأرجح ، فان ابن الفارض قبل رحيله الى الحجاز لم يكن قد ألف بعد « تائيته الكبرى » التى يعتبر أن الفتوحات المكية شرح لها .

أما اغفال « ابن عربى » قصة هذا اللقاء فذلك سر من أسرار الصوفية يظهر فى تصرفاتهم الغريبة فى بعض الأحيان ، وقد يكون هذا الاغفال متعمدا من جانب « ابن عربى » لأن هناك من الأحاديث التى دارت بينهما ما لا يمكن الاباحة به أو الخوض فيه بين شخصين أحدهما سلطان العارفين والآخر سلطان العاشقين ، وبين العشق والمعرفة تدق الأسرار وتتوه الأفكار .

ان هذا اللقاء ممكن من غير شك ، وكل ما أمكن أن يسجل منه هو هذا الحوار القصير الذى لا يؤدى الى هتك سر أو كشف حجاب . هذا الحوار الذى دار حول شرح التائية الكبرى وأن الفتوحات المكية خير شرح لها .

والتائية الكبرى قصيدة طويلة اسمها « نظم السلوك » وكانت ثمرة من ثمرات الوجد والغيبة والدهش وغيرها من الأحوال الصوفية التى كانت تعرض لنفس ناظمها وتعتبر ترجمة ذاتية لحياة الشاعر الروحية (٢) ، وهى بوصفها هذا يمكن أن يصدق عليها قول

---

(١) عمر بن الفارض سلطان العاشقين ص ٩١ .

(٢) عمر بن الفارض سلطان العاشقين ص ٢١٣ .

ابن الفارض لابن عربى : كتابك الفتوحات المكية شرح لها . لأن الفتوحات تتجه هذا الاتجاه وفيها بيان توضيحى لما كان يمر به الشيخ الأكبر من مراحل روحية وأذواق وجدانية .

منزلته لدى الملوك والأمراء :

ويمكن للمتتبع لحياة هذا الرجل العجيب الذى قضى حياته كلها منهكا جسمه وقواه فى رحلات دائبة مستمرة ، أن يدرك مدى الأحداث الهامة فى حياته التى لم تخل من حيوية دافقة وحماس علمى بالغ وانتاج خصب وفير فى كل المعارف الصوفية التى إقوبلت فى بعض الأحيان بالانكار والمعارضة ، وقد رأينا لونا منها فى أثناء مروره بالقاهرة ، والتى اشتدت فيما بعد حتى حرضت الناس على عدم مطالعة كتبه وقراءتها بل ونادت باحراقها ، وقد أدى ذلك الى ضياع كثير من مؤلفاته التى لم يبق منها الا أقل القليل .

ولكن حياته مع ذلك كانت مباركة عامرة زاخرة بجـــلائل الأعمال ، وقد بلغ الشيخ الأكبر لدى الملوك والأمراء منزلة عالية ، وصل اليها بالزهد ، وقد ورد عن الصوفية هذه الحكمة الخالدة: ازهد فيما فى أيدى الناس يحبك النـــاس . وكان « ابن عربى » كذلك ، فقد وجد الملوك فيه نموذجا فريدا غير ما كانوا يرونه من العلماء والفقهاء ، ففى الوقت الذى يتنافس فيه هؤلاء للتقرب الى أولى الأمر وأصحاب السلطة ، طمعا فيما ينالونه منهم من مغانم مادية أو أدبية ، كان هو ينفر من ذلك ، وقد وطد نفسه على الفرار من كل قيد يقيد حريته ولو كان هذا القيد من ذهب . يضاف الى هذا عدم تحرج بعض العلماء فى اكتساب المال ولو كان على حساب الدين ، فى حين أن الشيخ الأكبر كان يعمل للدين حسابه ويرعى له حرمته وقداسته ، وكيف لا يكون كذلك وهو الذى أفنى حياته على أساس قواعده فى الوصول الى حقيقة المعرفة ؟ .

ولنضرب مثلا على ذلك حتى لا يظن أن هذا الكلام يطلق على علاته : بلغ « ابن عربى » فى نفس الملك الظاهر غازى صاحب مدينة حلب ، منزلة عظيمة ، وأصبحت له كلمة مسموعة لديه فى الشفاعة لأصحاب الحاجات ، وكان الملك يقصده كثيرا فى منزله ، وقد رفع اليه « ابن عربى » فى مجلس واحد مائة وثمانى عشرة حاجة قضاها الملك جميعها لأصحابها ، ومنها الاستشفاع لشخص كان متهما بتدبير مؤامرة لاغتيال الملك نفسه ، وكان من جملة بطانته فعفا عنه اكراما لشفاعة محيى الدين بن عربى فيه .

وقد غطى جلال الشيخ الأكبر على كل ما كان للعلماء والفقهاء من نفوذ فى بلاط ذلك السلطان وكان هؤلاء لغلبة الهوى فى نفوسهم « قد تركوا المحجة البيضاء وجنحوا الى التأويلات البعيـــدة » ليحققوا ما يريده الملوك من أغراض لهم فيها هوى محاولين بذلك الاستناد الى نصوص شرعية رغم أن هذه الفتاوى التى يصدرونها ربما لا يعتقدونها ، ولقد صرح الملك « غازى » لابن عربى : بأن الأمور التى تنكرونها على ما أقدمت على منكر منهـا ـ رغم علمى بنكرانه ـ الا بفتوى فقيه وخط يده يشهد على ذلك . وقد بلغ من جراة احدهم أن أفتاه بأنه يجوز له أن يفطر فى شهر رمضان ويكفيه أن يصوم أى شهر فى السنة ، فليس رمضان بالذات هو الذى فرض على الناس صومه » (١) .

ومن العجيب أن يتهم أمثال هؤلاء الفقهاء « ابن عربى » واضرابه ممن هم على الجادة بالزيغ والفساد والزندقة ، ويبرئون انفسهم من هذه التهم التى هم أولى بها منهم .

وقد مر بنا كيف أن ملك « قونية » كيكاوس الأول خرج

---

(١) راجع ابن عربى ص ٧٨ وما بعدها .

بنفسه لاستقبال ابن عربى وأكرمه وبالغ فى اكرامه وأهداه دارا تقدر بمائة ألف درهم (١) .

أما صاحب حمص « أسد الدين شيركوه » فقد أكرم مقدمه وأراد أن يستبقيه عنده ورتب له كل يوم مائة درهم (٢) .

أما الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل الأيوبى صاحب دمشق ، فقد كان له شرف جوار الشيخ الأكبر فترة طويلة تقدر بحوالى ثمانية عشر عاما ، وقد أكرم هـــذا الملك « ابن عربى » اكراما كبيرا ، وكان ينظـــر اليه نظرة المريد الى استاذه ، وقد أذن له « ابن عربى » أن يروى عنه كتبه . نقل المقرى عن الفـــيروزبادى : « وقفت على أجـــازة كتبها للملك المعظم ، فقال فى آخرها : وأجزته أيضا أن يروى عنى مصنفاتى ومن جملتها كذا وكذا حتى عد نيفا وأربعمائة مصنف » (٣) .

وقد حاول ملك « قونية » استقدامه مرارا اليه ، وكان يكتب اليه يستشيره فى كثير من الأمور ، وكان « ابن عربى » يرد عليه بما يراه صالحا للمسلمين ، ومن ذلك مثلا هذه الرســـالة التى كتبها ووردت فى الفتوحات : « عليك بمراعاة كل مسلم من حيث هو مسلم ، وساو بينهم كما سوى الاسلام بينهم فى أعيانهم ، ولا تقل : هذا ذو سلطان وجاه ومال كبير وهـــذا صغير وفقير وحقير ، ولا تحقر صغيرا ولا كبيرا فى ذمته ، واجعل الاســـلام كله كالشخص الواحد ، والمسلمين كالأعضاء لذلك الشخص ، وكذلك هو الأمر فان الاسلام ما له وجود الا بالمسلمين كما أن

---

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ١٠١ .

(٢) نفح الطيب ج ٧ ص ١٠٨ .

(٣) نفح الطيب ج ٧ ص ١٣٩ .

الاســـلام ما له وجـــود الا بأعضائه وجميع قواه الظاهرة والباطنة »(١) .

ومن هـــذه الرسالة يبدو مدى حرص « ابن عربى » على مصلحة المسلمين ، كما يبدو منها اخلاص النصح للملك الذى كان يلجأ اليه مستشيرا فكان يجده دائما عند حسن ظنه ، ويرد عليه بما يعينه على سياسة رعيته واصلاح شأن المسلمين .

ولم يكن « ابن عربى » يرهب الخلفاء والحكام ؛ لأنه كان مؤيدا بصولة الحق ونور المعرفة بل كان الأمر بالعكس ، فقد كانوا هم الذين يرهبونه ويعملون له ألف حساب ، لشـــخصيته هو أولا ثم لقوة نفوذه بين أتباعه ومريديه ، وما كان « ابن عربى » من الأشـــخاص المغامرين الذين يفكرون فى احـــداث ثورات أو اضطرابات ضد أولى الأمر ، ولكنه كان زاهدا متواضـــعا مطيعا ، منفذا لأمر الله فى طاعة أولياء الأمور . وهو بما أعطاه الله من بصيرة أصبح لزاما عليه أن يقوم بواجبه الدينى كاملا بما فى ذلك المشاركة فى اسداء النصح والتوجيه الكريم لمصلحة الاســـلام والمسلمين كما رأينا فى رسالته العديدة ونصائحه المختلفة للملوك .

حدث مرة فى بغداد أن كان يسير بين طائفة من تلاميـــذه ، ومر عليهم الخليفة فى موكبه ، فأمر « ابن عربى » أتباعه ألا يبدءوا بتحية الخليفة جريا على العادة التى كانت متبعـــة ، فانصاعوا لأمره ، حتى حاذاهم الخليفة فبدأهم هو بالسلام فردوا عليه .

وابن عربى لم يكن يريد من ذلك الانتقاص من قدر الخليفة ، ولكنه أراد أن يعيد الى المسلمين تقليدا شرعيا فى التحية تناساه الناس أمام جبروت الخلفاء . ذلك التقليد هو أن يبدأ الصـــغير الكبير ، والراكب الماشى ، والماشى الجالس بالتحية ، وقد كان الخليفة ممتطيا صهوة جواده وهم راجلون ، فيجب على الخليفة

---

(١) ابن عربى ص ٧٤ .

أن يكون هو البادىء بالتحية بناء على هذا الأدب العالى الذى وضعه الاسلام .

على أن هذه المنزلة التى لقيها « ابن عربى » فى المشرق لدى الخلفاء ، كان يقابلها بعض التحفظ من ملوك المغرب ، ويمكن تعليل ذلك بأن السلطة فى ذلك الوقت كانت فى يد الموحدين ، وكانوا بصدد تكوين دولتهم فى الأندلس وتوطيدها فى أفريقيا ، ومنشئو الدول عادة يقفون من كل من يظن له نفوذ موقف التحفظ ، لا سيما وهم يدركون أن للدين سطوته ورهبته ، وأن التصوف بخاصة يحمل أصحابه على التضحية والفداء ، وهم لا يريدون اثارة الحمية الصوفية فى النفوس ، حتى لا تتحول مع الزمن الى ثورة عاتية ربما تقضى عليهم وتبدد دولتهم . هذا سبب ، وسبب آخر هو أن سلطة الفقهاء فى ذلك الوقت كان لها تأثير مضاد ضد الصوفية ، وهم ما زالوا يحملون لواء الخصومة للتصوف وأنصاره ، وقد استطاعوا بتأثيرهم أن يوغروا صدر السلطان ضد شيخ من شيوخ التصوف هو « أبو مدين » وقد أراد ابن عربى أن يزيل ما ألصق بهذا الشيخ المجاهد من اتهامات زينها له الفقهاء ، فدارت بينه وبين السلطان « يعقوب المنصور » مناقشة فى شأنه انتهت على غير ما كان يرجو « ابن عربى » فخرج غاضبا من عنده .

على أن ما فقده الشيخ الأكبر من منزلة لدى هؤلاء لم يكن له أدنى تأثير في نفسه ، وقد عوضه الله عن ذلك بما هو أعز وأرفع

لدى جميع ملوك اهل المشرق . حتى اذا ما قضى وجد هؤلاء الملوك أنفسهم ملزمين بأن يتابعوا واجبهم نحوه ، فأولوا مدفنه عناية فائقة ، وتعهد بذلك الخلفاء المتعاقبون على دمشق وبخاصة العثمانيون الذين جددوا هذا المزار مرارا . وكان لهم فى الشيخ الأكبر اعتقاد خاص . يذكر الشعرانى سببه وهو تنبؤه بسلطان العثمانيين (١) . وقد أجريت عليه الأوقاف وأصبح مزارا مشهورا يقصده الناس من كل مكان . وبنى عليه السلطان سليم خان مدرسة عظيمة (٢) .

---

(١) طبقات الشعرانى ج ١ ص ١٦٣ .

(٢) نفح الطيب ج ٧ ص ١٤٩ .

أخلاق

أفنى الشيخ الأكبر حياته فى الطريق الصوفى حتى وصل الى غايته ، ومبنى الطريق الصوفى قائم على الأخلاق ، ولعنـــاية التصوف بها جعلها أساسا ووسيلة وغاية ، والصوفية يحكمون على مراتب بعضهم بما يرونه من أخلاق ، لذلك يقولون : كل من زاد عليك فى خلقه زاد عليك فى تصوفه . ويضعون للتصـــوف تعريفات مختلفة لا تخرج فى ذاتها عن التجلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل .

والشيخ الأكبر رائد عظيم من رواد هذا الطريق الذى نظر اليه المتصوفة وغيرهم نظرة اكبار واعظام ، وغنى عن القول بأن هذه المنزلة وصل اليها بما كان عليه من اســـتقامة على الجادة وصدق فى الطلب وورع كامل بلغ الى حد لا يمكن أن يصل اليه الا من ندر وأخلاق كريمة حببت فيه الخاص والعام .

وقد كان لنشـــأته الأولى فى أسرة صالحة تقية الى جانب ارومته النقية الى جانب مصاحبته كل من صاحبه التوفيق أثر كبير فى تلك النفحات العطرة الكريمة التى تضوع بها هـــذه الشخصية المحببة .

والشـــيخ الأكبر حقيق بهذا الوصف الذى وصـــفه به « ابن مسدى » انه كان جميل الجملة والتفصيل . ولكن هناك مناقب بارزة فى حياته جديرة بالوقوف عندها قليلا .

فمن ذلك زهده الشديد الذى كان مضرب الأمثال ، ذلك الزهد الذى رفعه فى أعين الناس . والزهد عند الصوفية منازل ودرجات . أعلاها الزهد فيما سوى الله ، وقد كان زهد الشيخ الأكبر من هذا النوع الذى جعله يهجر كل نعمة ويترك كل راحة ، ويحقر كل لذة ، ويضحى بكل غال فى سبيل الظفر بأمنيته .

ولقد توفر المال بين يديه فما أمسك منه شيئا ، ورغب الملوك والسلاطين فى أن يؤمنوا له حياته ويوفروا له كل أسباب الراحة والنعمة ، ولكنه رغب عن كل ذلك ، وأطلق نفسه من كل أسر ، وانطلق يحلق فى الأجواء .

ومرت عليه فترة من حياته زهد فيها معاشرة زوجه عملا بنصيحة شيخه « المغاورى » التى سمعها من أحد تلاميذه والتى ينهى فيها عن معاشرة النساء . ولم يقبل عليها بعد ذلك الا امتثالا لسنة النبى صلى الله عليه وسلم فى أمره باعطاء المرأة حقها من المعاشرة الحسنة . فهو يقول : « كنت من أكره خلق الله تعالى فى النساء فى أول دخولى الى هذا الطريق وبقيت على ذلك نحوا من ثمانى عشرة سنة الى أن شهدت هذا المقام ، وكان تقدم عندى خوف المقت لذلك » ويقصد بالمقام مقام امتثاله لسنة النبى صلى الله عليه وسلم ودعوته الى الزواج ومعاشرة الزوجة . وخاف على نفسه المقت لأنه خالف سنة الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك. والزهد رأس الفضائل لا سيما اذا كان عن قدرة .

ومن صفات « ابن عربى » الجديرة بالتسجيل كرمه الذى كان مضرب الأمثال ، وهو كرم متوارث من أسرته الطائية المشهورة زكاه دينه وورعه وخلقه وتصوفه . والتصوف لا يمقت شيئا كما يمقت البخل ، فالله لم يحبب فى شىء كتحبيبه فى الانفاق والبذل ، ولم ينفر كما نفر من البخل والشح لأنهما من أسباب سوء الخلق .

وكرم « ابن عربى » ارتفع الى درجة الايثار ، وهو أرفع منازل الجود ، « أمر له ملك الروم فى (قونية) مرة بدار تساوى مائة الف درهم قلمـــا نزلها وأقام بها ، مر به فى بعـض الأيام ســـائل ، فقال له : شيء لله ، فقال : مالى غير هذه الدار ، خـذها لك ، فتسلمها السائل وصارت له » (١) .

وكان ينفق عطاءه اليومى جميعه على الفقراء والمساكين وكان كثيرا قدر بمائة وثلاثين درهما .

ولقد أدرك « ابن عربى » المعنى الصوفى للصدقة ، فانها ليست مجرد اعطاء للفقير ، ولكن لها معنى أبعد من ذلك ، تعلمـــه من شيخه « يوسف الأستجى » الذى يروى عنه هـــذه القصة : « وقفت أنا وعبد صالح معى يقال له : يوسف الأستجى على سائل يقول : من يعطى شيئا لوجه الله ، ففتح الرجل صرة دراهم كانت معه ، وجعل ينتقى له من بين الدراهم قطعة صغيرة يدفعها للسائل، فوجد ثمن درهم ، فأعطاه اياه ، وهذا العبد ينظر اليه فقال لى : يا فلان ، تدرى على ما يفتش المعطى ؟ قلت : لا ، قال : على قدره عند الله . لأنه أعطى السائل لوجه الله ، فعلى قدر ما أعطى لوجهه ذلك قيمته عند ربه »(٢) .

ويصل الكرم بابن عربى الى درجة التصدق بثواب ما يعمل من طاعة ، رغبة فى جزاء السيئة بالحسنة ، وهذا منتهى المروءة ، فان مقابلة الاحسان بالاحسان أمر طبيعى أما مقـابلة الاساءة بالاحسان فذلك أمر لا يكون الا من سوابق الهمم ، ولا يدل الا على عظم اتساع القلب والارتفاع فوق مستوى البشرية .

---

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ١٠١ .

(٢) ابن عربى ص ٢٦ .

جاء في نفح الطيب : « قال الشيخ محيى الدين .. : انه بلغنى فى مكة عن امرأة من أهل بغداد أنها تكلمت فى بأمور عظيمة ، فقلت : هذه قد جعلها الله سببا لخير وصل الى فلأكافئنها ، وعقدت في نفسى أن أجعل جميع ما اعتمرت فى رجب لها وعنها ، ففعلت ذلك ، فلما كان الموسم استدل على رجل غريب ، فسأله الجماعة عن قصده فقال : رأيت « بالينبع » فى الليلة التى بت فيها كأن آلافا من الابل أوقارها المسك والعنبر والجوهر ، فعجبت من كثرته ثم سألت : لمن هو ؟ فقيل : هو لمحمد بن عربى يهديه الى فلانة — وسمى تلك المرأة — ثم قال : وهذا بعض ما تستحق .

« قال سيدى ابن عربى : فلما سمعت هذه الرؤيا واسم تلك المرأة — ولم يكن أحد من خلق الله تعالى علم منى ذلك — علمت أنه تعريف من جانب الحق ، وفهمت من قوله : ان هـذا بعض ما تستحق أنها مكذوب عليها ، فقصدت المرأة ، وقلت : اصدقينى، وذكرت ما كان من ذلك ، فقالت : كنت قاعدة قبالة البيت وأنت تطوف ، فشكرك الجماعة الذين كنت فيهم ، فقلت فى نفسى : اللهم انى أشهدك أنى قد وهبت له ثواب ما أعمله فى يوم الاثنين وفى يوم الخميس وكنت أصومهما وأتصدق فيهما ، قال : فعلمت أن الذى وصل منى اليها بعض ما تستحق فانها سبقت بالجميل والفضل للمتقدم »(١) .

فهذه القصة تفهمنا مسارعة ابن عربى الى اهداء ثواب أعماله الى امرأة سبق الى ظنه — بناء على ما أبلغه — أنها أساءت اليه ، فأراد أن يكافئها على ذلك ، ولو كان ما يهديه اليها شيئا ماديا لكان جديرا بالفضل ، فما بالك حين تعلم أن الهدية ثواب طاعة وهو أحرص ما يكون الانسان عليه ؟ فلن يدل ذلك الا على نهاية المروءة

---

(١) نفح الطيب جـ ٧ ص ١٢٧ .

والكرم والايثار يقول المقرى : « وحصلت له بدمشق دنيا كثيرة فما ادخر منها شيئا ، وقيل ان صاحب حمص رتب له كل يوم مائة درهم وابن الزكى كل يوم ثلاثين درهما فكان يتصدق بالجميع »(١) .

والقصة المتقدمة تسلمنا الى فهم آخر فى أخلاق « ابن عربى » هو الاحسان الى من أساء والعفو الجميل الصادر عن قلب صاف خال من أى ذرة من ذرات الحقد أو الغل أو الكراهية . وهذا أوفى درجات الحلم .

وقد وطن الشيخ نفسه منذ أن نذرها للطريق الصوفى أن يكون مفتاحا للخير مغلاقا للشر ، محتملا للأذى ومعينا للاخوان ، وتلك ثمرة من ثمار هذا الطريق وتوجيهات أئمة التصوف ، ولن يكون الصوفى صوفيا الا اذا كان ذا قلب واسع يملؤه الصفح وتنيره الرحمة ، والصوفى فى ذلك ينظر الى نبيه الكريم الذى وصفه الله عز وجل بهذه الصفات العالية « عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » (٢) « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » (٣) ويحدث هو عن نفسه قائلا : « انما أنا رحمة مهداة » .

جاء فى شذرات الذهب : « مما وقع له أن رجلا من دمشق فرض على نفسه أن يلعنه كل يوم عشر مرات ، فمات ، وحضر ابن عربى جنازته ثم رجع وجلس فى بيته وتوجه للقبلة . فلما جاء وقت الغداء أحضر اليه فلم يأكل ، ولم يزل على حاله الى بعد العشاء ، فالتفت مسرورا ، وطلب العشاء وأكل ، فقيل له فى ذلك . فقال : التزمت مع الله أنى لا آكل ولا أشرب حتى يغفر لهذا الذى

---

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ١٠٨ .

(٢) التوبة ١٢٨ .

(٣) الأنبياء ١٠٧ .

يلعننى ، وذكرت له سبعين ألف لا اله الا الله فغفر له »(١) ثم يقول ابن العماد : « وقد أوذى الشيخ كثيرا فى حياته وبعد مماته مما لم يقع نظيره لغيره ، وقد أخبر هو عن نفسه بذلك ، وذلك من غرر كراماته » وقد سبق الاشارة الى ذلك الاخبار وتعقيبه عليه بقوله : « فعلمت أنه لابد أن يبتلينى الله بكلام فى عرضى من قوم فأعاملهم بالحلم » (١) .

هـــذا وشخصية الشيخ الأكبر صفحة مشرقة بكل ما يملأ النفوس اجلالا واعظاما ، وفى كل ناحية من نواحى العظمة الخلقية تجد له قدما راسخا وأثرا مشهودا ، مما يطول بيانه ويعجز الوفاء به ، وقد صدق ابن العماد فى قوله : « من تأمل ســـيرة ابن عربى وأخلاقه الحسنة وانســلاخه عن حظوظ نفسه وترك العصبية حمله ذلك على محبته واعتقاده »(١) .

ومن أقوال ابن عربى المأثورة التى تدل على سعة قلبه وجميل عفوه : « شرط الكامل الاحسان الى أعدائه وهم لا يشعرون تخلقا بأخلاق الله ، فانه دائم الاحسان الى من سماهم أعداءه مع جهل الأعداء به » (٢) .

و « ابن عربى » رغم الكرامات التى كانت تحدث على يديه ، فانه لم يكن يعبأ بذلك أو يعلق عليه أهمية تذكر ، وهذا يضيف الى أخلاقه صفة أخرى ، هى صفة التسامى الى أعلى مدى يمكن أن تصل اليه روح ، وكثيرا ما كان ينصح أتباعه ومريديه بألا يتطلعوا الى شىء من هذه الخوارق أو الكرامات ؛ لأنها كثيرا ما تقف عقبة فى طريق وصول المريد الى الكمال ، فان حدث شىء من ذلك عفوا

---

(١) شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٩٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٩٦ .

فعليه أيضا ألا يلتفت اليه بل عليه أن يستغفر منه لأنه امتحان فى قالب اكرام .

والكرامة الحقيقية فى نظر « ابن عربى » وأمثاله هى الاستقامة على الجادة ، والمضى قدما الى الأمام دون الالتفات الى أى عارض يعترض الطريق ، ومن نصـــائحه فى ذلك : « لا تطلب من الله فى خلوتك سواه ، ولا تعلق الهمة بغيره ، ولو عرض عليك كل ما فى الكون فخذه بأدب ولا تقف عنده ، وصمم على طلبك فانه يبتليك، ومهما وقفت مع شىء فاتك ، واذا حصلته لم يفتك شىء » وقــد عبر عن هذا المعنى صوفى آخر من تلاميذ الشاذلى هو ابن عطاء الله السكندرى فى حكمة من حكمه الرائعة بقوله : « ما أرادت همة سالك أن تقف عندما كشف لها الا ونادته هواتف الحقيقة : الذى تطلب أمامك ، ولا تبرجت ظواهر المكونات الا ونادته حقائقها : انما نحن فتنة فلا تكفر »(١) .

---

(١) شرح الرندى على حكم ابن عطاء الله السكندرى .

ابن عربي الأديب

بيئة الأندلس والأدب : سبق الاشارة الى طبيعـة الأندلس الجميلة المحببة الى النفوس فقد أحاطت بها المياه من أعظم جوانبها ، وتمتعت بتربة خصبة صالحة لما نما فيها من أشجار باسقة وأزهار متفتحة وثمار يانعة ، وتعددت فيها الأنهار التى من أهمها النهر الكبير ونهر تاجة ، وذلك الى جانب ما يوجد فيها من جبـال متدرجة تثمر على سطوحها مختلف الزروع وشتى الثمار ، وقد تغنى كثير من الشعراء والأدباء بمفاتن الأندلس ووصفوا جمالها الأخاذ الساحر ، وتفننوا فى عرض هذه الصور فى منظومات رقيقة وتعبيرات أنيقة ..

وقد كانت هذه البيئة مهدا صالحا لاخراج مئات الشعراء والأدباء الذين صقلت مواهبهم تلك المناظر الفاتنـة وأبرزت استعداداتهم هذه المشاهدات البارعة :

استعداد ابن عربى : وكان هذا كفيلا بتهيئة الفرصة لظهور موهبة كموهبة « ابن عربى » الذى هيأته أرومته العربية الأصيلة الشاعرة فزودته بالاحساس المرهف والانفعال الصادق ، والتجاوب مع كل ما يقع تحت سمعه وبصره من فن مطبوع ومصنوع .

والتقى ابن عربى فى صباه بطائفة من العلماء الأجلاء «الفنانين» الذين يحبون الأدب ويتذوقونه ويقولونه . فأستاذه فى القراءات

« أبو القاسم الشراط » كان بصيرا باللغة وآدابها وله حظ من قرض الشعر . وأستاذه « أبو محمد عبد الحق الأشبيلى » كان أديبا شاعرا ومن شعره :

ان فى الموت والمعاد لشـــغلا
لأولى الدين والنهى وبلاغـــا

فاغتنم خطتين قبـــل المنـــايا
صحة الجسم يا أخى والفراغا

وغيرهما من أساتذته كان له ذلك الحظ من الأدب ، وشيوخه فى التصوف كان أغلبهم أدباء فنانون لهم الباع الطويل فى فنـــون النظم والنثر ، ومن بينهم « المارتلى وأبو مدين » وكلاهما له أدب جيد رفيع .

كل ذلك كان له أثره فى صقل موهبته الأدبية وانماء استعداده الفنى مما جعله شاعرا مجيدا . يضاف الى ذلك اقباله على قراءة كثير من كتب الأدب ونقده والانتفاع بها انتفاعا كبيرا ، وهو يحدث فى مقدمة كتابه « محاضرة الأبرار » عن كثير من الكتب التى قرأها ، ومن بينها فى فن الأدب الكتب الآتية : الأمانى لأبى المعالى البغدادى نزيل قرطبة ، وكتاب ريحانة العاشق لأبى القاسم المسور ، وكتاب روضة الأنس لأبى زيد السهيلى ، وكتاب الكامل للمبرد ، وزهرة الأدب للحضرى ، والمحاسن والأضداد للجاحظ ، ومعاناة العقل للحلوى ، والحماسة لأبى تمام ، والحماسة الحلوية وغيرها .

وهذا الاستعداد هو الذى كفل له أن يتولى كتابة الانشاء فى ديوان « أشبيلية » ولا يتولى هـــذا المنصب الا من كانت لديه الموهبـــة لذلك .

وقد كان ابن عربى منذ نشأته ميالا الى الأدب ، وكان يشارك

فى مجالسه وله دراية كاملة بفن القول يشهد لذلك كثرة ما أثر عنه من انتاج أدبى رائع فى فن النظم والنثر .

اعجابه بالشعر الجيد ومشاركته فى مجالس الأدب : ولقد كان يعجبه بيت من الشعر فينظم على منواله ، من ذلك مثلا ما يرويه الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل : أنشد بعض الصوفية ابن عربى بيتا مفردا فأعجب به ، فعمل أبياتا وضمنها هذا البيت وهو الرابع من القطعة الآتية :

قف بالطلول الدارسات بلعلع
واندب أحبتنـا بذاك البلقـع
قف بالديار وناجهـا متعجبـا
منهـا بحسن تلطف وتفجـع
عهدى بمثلك عند بانك قاطعـا
ثمر الخـدود وورد روض أينع
« كل الذى يرجو نوالك أمطروا
ما كان برقك خلبـا الا معى »
قالت : نعم قد كان ذاك الملتقى
فى ظل أفنانى بذاك الموضع (١)

« وابن عربى » يتمتع بملكة نقد صافية تعينه على تمييز الجيد من الكلام ، وكتابه محاضرة الأبرار خـير نموذج لذلك نقتطف من زهراته ما يأتى : ـ

يقول ابن عربى : مما جاء فى الجود قول الشاعر :

(١) مجلة منبر الاسلام عدد ربيع الأول ـ ١٣٨٦ هـ .

فتى عاهــد الرحمن فى بذل مــاله
فلست تراه الدهــر الا على العهــد

فتى قصرت آمــاله عن فعــاله
وليس على الحر الكريم سوى الجهد

ويعلق على ذلك بقوله : هذا المديح أقرب للديانة من الكرم ، فان عطاءه انما هو من أجل الوفاء بعهــده مع الله ، حتى لا يكون من الذين ينقضون عهد الله ، والكريم سجيته الكرم ، فلا يحتاج الى القسم عليه الا لعلة نفسه ، فما وفى هذا الشاعر مدح هذا فى الكرم ما تصور له فى خاطره . فهذا اللفظ دون ما فى القصد .

ومن جيد الشعر ما قال القائل :

لئن ســاءنى أن نلتنى باساءة
لقــد سرنى أنى خطرت ببالكا

ويعلق : وأحسن منه لو قال ما قلنا :

لئن سرنى أن نلتنى بمســاءة
فما كان الا أن خطــرت ببالكا

لأن الأول قد أقر بأنه أساء ثم اعتذر .

ومن أحسن الشعر ما قال الآخر فى باب الشكوى :

فالليل ان وصلت كالليــل ان هجرت
أشكو من الطول ما أشكو من القصر

ويعلق : احسن منه ما قلنا :

شغلى بها وصلت بالليل أو هجــرت
فما أبالى أطــال الليــل أم قصرا

فان الأول شغله بطول الليل وقصره من أجلها . فهو فاقد لها فى زمن الاشتغال بغيرها والثانى شغله بها ومن سواها تبع(١) .

وهذا الكتاب غاص بمثل ذلك وغيره من ألوان القطوف .

ومن أمثلة مشاركته فى مجالس الأدب ما يحكيه المقرى نقلا عن العماد بن النحاس : « أنه كان فى سفح جبل قاسيون على مستشرف، وعنده الشيخ محيى الدين والغيث والسحاب عليهم ، ودمشق ليس عليهم شىء ، قال فقلت للشيخ : أما ترى هذه الحال ؟ فقال : كنت بمراكش وعندى ابن خروف الشاعر يعنى أبا الحسن على بن محمد القرطبى القيذافى ، وقد اتفق الحال مثل هذه ، فقلت له مثل هذه المقالة ، فأنشدنى :

يطـوف الســـحاب بمراكش
طواف الحجيج ببيت الحـــرم

يروم نزولا فــلا يســـــتطيع
لسفك الدمـــاء وهتك الحرم(٢)

مأثوراته الأدبيـــة :

ومأثورات « ابن عربى » الأدبية كثيرة ، فى مقدمتها دواوين شـــعره ، ويذكر منها « بروكلمان » الديوان الأكبر ـ وديوان الأشواق وله اسم آخر هو (الهجاء الأمجد على ترتيب حروف الأبجد) وديوان المرتجـــلات ، والقصيدة التائية ، وقصيدة فى المناسك ، وترجمان الأشواق وشرحه عليه المسمى : بذخائر الأعلاق فى شرح ترجمان الأشواق ، وغير ذلك من الكتب . ومن عيون

(١) محاضرة الأبرار ج ٢ ص ٤٤ .

(٢) نفح الطيب ج ٧ ص ١٠٦ .

آثاره الأدبية كتاب محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ، وهو كتاب نفيس جمع « ضروبا من الآداب وفنونا من المواعظ والأمثال والحكايات النادرة ، والأخبار السائرة ، وسير الأولين من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، والأمم وأخبار ملوك العرب والعجم ومكارم الأخلاق .. »(١) وفيه يقول : محاضرة الأبرار خير كتاب ، لب اللباب ونزهة الألباب .

نماذج من شعره : وشعر « ابن عربى » يدور أغلبه حول المعانى الصوفية ، وان كان بعض ما فيه من قصائد تدور حول النواحى الاجتماعية كهذين البيتين اللذين وردا فى اجابة سؤال سأله بعض أصحابه له : كيف حالك مع أهلك ؟ فأجاب :

اذا رأى أهل بيتى الكيس ممتلئا
تبسمت ودنت منى تمازحنى

وان رأته خليا من دراهمه
تكرهت وانثنت عنى تقابحنى

وهى قضية اجتماعية نراها سائدة فى مختلف المجتمعات ، فقد أجابه السائل : كلنا ذلك الرجل .

وبالرغم من زهد « ابن عربى » الا أنه رأى حب المال سائدا كما رأى أثره فى مختلف مناحى الحياة بل هو عصبها ، ولكن يجب ألا يكون شاغلا عن الله فهو ينصح بأن يكون الانسان غنيا بالله لا بالمال : —

بالمال ينقاد كل صعب — من عالم الأرض والسماء
يحسبه عالم حجابا — لم يعرفوا لذة العطاء

---

(١) محاضرة الأبرار (المقدمة) .

لولا الذى فى النفـــوس منه لـــم يجب الله في الدعـــــاء
لا تحسب المـــــال ما تراه من عســـجد مشرق الضـــياء
بل هـــــو ما كنت يا بنيى به غنيـــا عن الســـــواء
فكن برب العـــلا غنيـــــا وعـــامل الخـــلق بالوفـــاء

ومن القضايا الاجتماعية البارزة فى كل عصر هى أن يتولى بعض الأمور من ليس أهلا لها ، وأن يرتفع الحقير ويتضع العظيم ، وهذه سنة الكون : ـ

قـــد ثاب غلمـــاننا علينـــــا فما لنا فى الوجـــود قـــدر
أذنابنا صـــــيرت رءوســـــا ما لى على ما أراه صـــــبر
هـــذا هو الدهـــر يا خليلى فمن يقاســـــيه فهو قهـــر

وله فى الفخر قصائد مر علينا طرف منها .

وابن عربى كشاعر مطبـــوع نشأ فى بيئة الأندلس المزهرة لا ينسى الاعجاب بالطبيعة ، وما أنشد فيها من شـــعر كما يصوغ هو فى ذلك . فمما أعجبه وضمنه كتابه محاضرة الأبرار ، قول أبى على ابن شبل في وصف الربيع : ـ

عرائس الأرض تجلى فى غـــلائلها
وفى حلى عليهـــا صـــاغها الديم
تســـتن فى حلل الأنواء منهبـــة
فى كل حاشـــية من نســـجها علم
در من الأقحـــوان الغض زينـــه
حمـــر اليواقيت فى المنثور ينتظـــم
كأنما بالســـماء الأرض شـــامتة
تبكى الســـماء وثغر الأرض يبتسم

وأما قول ابن عربى فهو : ـ

أما ترى الروضة الفناء تضحك اذ
جـــادت على الأرض بالأزهار أنواء

تبسم الأرض اذ تبكى السـماء فهل
بين السـمـاء وبين الأرض شحناء

لا والذى بضروب الزهر أضحكها
ما ثم شـحناء لكن ثم أشـيـاء

ان السماء تقـول الزهر من زهرى
والأرض تأبى الذى قالتـه والماء

وابن عربى زاد على ابن شبل جمال التعليل .

المعانى الصوفية فى شعره :

ولكنه فى شعره شغل بالتصوف كما شغل به في غيره من الكتب ، ولذلك حفل انتاجه بهذه المعانى التى دارت حول الشوق والمحبة والأنس والفناء والبقاء وفنون المعرفة التى كشف له عنها أو تذوقها ، وغير ذلك من المصطلحات التى حفلت بها كتب التصوف .

وقد نحا فى شعره منحى الرمز كغيره من الصوفية لأنه ضن بأسراره أن تنتهك ، وتلك عادة الصوفية فى التعبير عن أذواقهم . ومن هذا اللون الرمزى قوله فى محاضرة الأبرار : ـ

طلع البدر فى دجا الشـعر — وسقى الورد نرجس الخفر
غادة تاهت الحسـان بهـا — وزهـا نورها على القمـر
هى أسنى من المهاة سـنا — صـورة لا تقاس بالصـور
فلك النور دون أخمصـها — تاجهـا خـارج عن الأكر

ان سرت فى الضمير يجرحها ذلك الوهم كيف بالبصر ؟
لعبة ذكرنا يذوبها لطفت من مسارح النظر .

ومن ذلك قوله فى ترجمان الأشواق : —

غادرونى بالأثيل والنقا أسكب الدمع وأشكو الحرقا
بأبى من ذبت فيه كمدا بأبى من مت منه فرقا
حمرة الخجلة في وجنته وضح الصبح يناغى الشفقا
قوض الصبر فطنب الأسى وأنا ما بين هذين لقى
من لبثى من لوجدى دلنى من لحزنى من لصب عشقا ؟
كلما ضنت تباريح الهوى فضح الدمع الهوى والأرقا
فاذا قلت : هبوا لى نظرة قيل : ما تمنع الا شفقا
ما عسى تغنيك منهم نظرة هى الا لمح برق برقا
لست أنسى اذ حدا الحادى بهم يطلب البين ويبغى الأبرقا
نعقت أغربة البين بهم لا رعى الله غرابا نعقا
ما غراب البين الا جمل سار بالأحباب نصا عنقا

ولا ينكر منكر رقة هذه الأبيات وعذوبتها ولطف معانيها ، ولو أنها انصرفت الى القول الحسى لصورت كل ما يمكن تصويره من ألم البعد والفراق الى جانب التحسر على جمال المحبوب الذى اصطبغت وجنته بحمرة الخجل ، ويود لو يفديه بروحه وبأبيه ، الى غير ذلك من معانى الحب وأفاعيله فى الأرواح والقلوب، ولقد عرض ذلك فى صور تغذيها العاطفة ويقويها الخيال ، فهو قد ذاب من ألم الفراق ، وهو قد صور الصبر خيمة قوضت ، وصور الأسى مقيما ، وجعل الدمع فاضحا هواه ، ونظرة المحبوب

ما هى الا برق يبرق ، وحمرة الخجل فى الوجنة البيضاء ما هى الا اجتماع الشفق ببياض الصبح .

ولكنها منصرفة الى المعانى الروحية التى يوضحها الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل بقوله : —

« وابن عربى يشير الى الروحانيات بالمغادرين والمسافرين ، وحزنه وكمده ودمعه وخوفه كل ذلك من مفارقة الروحانيات اللطيفة لجسده الثقيل ، وتركها له مرتهنا بهيكله مقيدا فيه ، وهو يستغيث بالروح الكلى ليظل قلبه متصلا بالتنزلات الالهية التى تبعثه وتحييه والاشارة بمعالم الجمال الى التجلى على القلب ووقوع الاستحياء فيه من هيبة التجلى ، وليس الصبر والأسى الا لفحات من الشوق تصيب القلب فلا يحتملها الا بما يعين ، وهو كلما حاول القيام فى مقام الكتمان ألجأه الشوق الى البوح والاعلان ، واذا لم ينطق به لسانه نطقت جفونه ، واذا تمنى نظرة منع منها . وهو يحسب أنه منع قهرا ، ولكنه أشفاق به ، واذا أرخيت الحجب بين السبحات وبين الخلق فرحمة بهم واشفاقا عليهم ، ولو رفعت هذه الحجب وكشفت هذه الستور لأحرقت سبحات وجهه » ..

« والنظرة الواحدة لو تمكن الانسان منها مطفية تثير النفس الى نظرة أخرى بعدها ، ومثلها فى فعلها بالقلب مثل فعل ماء البحر بالظمآن كلما شرب ازداد عطشا . ولم ينس الصوفى الروحانيات التى جالسته في الله تعالى ثم عرجت اليه شاهدة بفعله وجهده ودأبه فى العبادة والطاعة ، وكان عروجها الى الأبرق اشارة الى المشهود الذاتى ، وأما الاشارة بالبرق فللنور الذى ينسكب خاطفا ثم يسرع زائلا عن الحضرة والمكان .

« والتكنية بالأغربة عن الأمور التى خلفته عن العروج مع هذه الروحانيات وتركته مقيما في حبس الجسد لا يسمو الى مقام العبودية التى هى غاية السمو والارتقاء ، وليست مراكب هذا السمو الا الهمم التى أعدت للوصول ، فمن بذلها وركب نجائبها سارت به الى المكانة التى تنعدم فيها الأسماء وتضمحل الرسوم وتفيض النعم والتجليات من الحى القيوم » (١) .

ولقد دعا ابن عربى السامعين والقارئين ألا يقفوا عند حدود ظاهر الألفاظ بل عليهم أن يتعمقوا فى فهم مضمونها وأسرارها حتى يدركوا ما فيها من جمال وأذواق وهو يقول فى ذلك : ـ

كل ما أذكره مما جرى ذكره أو مثله أن تفهما
منه أسرار وأنوار جلت أو علت جاء بها رب السما
فاصرف الخاطر عن ظاهرها وأطلب الباطن حتى تعلما .

ولقد صاغ ابن عربى فى مختلف معانى الحب ، فمن ذلك قوله فى النحول : ـ

صيرنى حبك معقولا بحكمه وكنت محسوسا
لطفت حتى لا يرانى الهوى فلم يجد عندى تعريسا (٢)

ومن قوله في اتحاد المحب فى الهوى وهو من المعانى الدقيقة : ـ

ان الهوى ما أنا للحب حامله
والحكم للحب فى الأشخاص ليس لنا
مثل الصفات لدى قوم أشاعرة
فلا الهوى هو غيرى لا ولا هو أنا

---

(١) منبر الاسلام عدد جمادى الآخرة ١٣٨٦ هـ .

(٢) محاضرة الأبرار ج ٢ ص ١٥٠ .

ان الهــوى وأنا بالعين متحــد
فان أمت فيه وجدا أو أعش فبنا
لولا الجمــال الذى بالحب كلفنــا
لم يهلك الوجد قلب الصب والبدنا
ان « النظام » لتـــدرى ما أفوه به
وقد أشرت اليها مرة « بمنى » (١)

وله فى معنى معاتبة القلب والبصر .

تقـــول عينى لقلبى : ان فكرك قد
رمى الجفون بدمع الوجـد والسهر
فقال قلبى لطرفى : لا تقـــول كذا
بل أنت عرضـــتنى للفكر بالنظـــر
لولا الجمـــال الذى ألفت نواظركم
هـــواه فى خلدى لم تبـــل بالفكر
فالعتب للقلب جـــود من معاتبـــة
وانما العتب فى التحقيق للبصـــــر
وها انا حكم بالعـــدل بينهمـــا
لعلمنا بالذى فيه من الخبـــر (١)

ولابن عربى قريحة شعرية تعينه على الارتحال ، فقد حدثوا أنه قال مرة هذا البيت : ــ

يا من يـــــرانى ولا أراه
كم ذا أراه ولا يـــــــرانى

---

(١) محاضرات الأبرار جـ ٢ ص ١٥٠ .

فأنكر عليه أحد تلامذته ذلك وقال له : كيف تقول : انك تراه ولا يراك ؟ فأنشد على الفور مرتجلا : ـ

يا من يرانى مجـــــرما ولا أراه آخـــــذا
كـم ذا أراه منعمـــا ولا يـــــرانى لائذا .

شعره فى التصوف العملى : ـ

وقد نظم « ابن عربى » في جميع فنون التصوف ، ومن بين ذلك ما نظمه فى الدعوة الى الأخلاق والزهد وايثار الآخرة على الأولى والتشوق الى النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن أمثلة ذلك قوله يرغب فى فعل الخير : ـ

لا تنـــدمن على خـــير تجـود به
وان أغاظك من تعطيـــه واقترفا

فالله يرزق من يعطيــه نعمتــه
ســواء أنكرها كفرا أو اعتـــرفا

ويدعو الى الاخلاص فى العمل والبعد عن الرياء قائلا : ـ

ان كنت لــى أكـــون لك مـــا أنت لــى مــا أنا لك
فاصـــغ الى قولى تجـــد صـــحة ما قـــد قلت لك
ولتلتـــزم طـــريقتى واجهــــد وخلص عملك
تنـــل بمـــا جئت به من كل خـــــير أملك

وكتب الى صاحب له ببلاد الروم اسمه « اسحاق بن محمد من اصحاب السلطان ممن تخدمه الدولة وتظهر به السنة : ـ

اسحاق فاسمع اوعظ من أخى ثقة
ولا يغرنك تقـــريب الســـلاطين

ان الملـــوك قد استغنـــوا بملكهم
عنا وعمـــا بأيديهـــم من الدين

فاســـتغن بالله عن ملك الملوك وعن
ســؤال من هو مسكين ابن مسكين

فالله يكفيك يا عينى ويا ولـــدى
شـــر الملوك وأشـــرار الشياطين

ومن شعره الذى يدل على التأمل والنظرة الصائبة قوله عن الـــوت : ـ

شـــــاب فـؤادى وشب الأمل
ومضى العمـــر وجـــاء الأجـــل

عســـكر الموت لنـــــا منتظـــر
فاذا ســرنا اليهـــم رحلـــوا

ليت شعرى ليت شـعرى هل دورا
أننى بعـــــدهم منتقـــــل ؟

فى فنـــون اللهـــــو أفنى طربا
غافـــلا عمـــــا له أنتقـــــل

وله فى معنى المحاسبة واضافة الأعمـــال الى الله تعـــالى ، اذ لا فاعل الا هو ما ورد فى محاضرة الأبرار : ـ

تحاســبهم بمـــا فعلـــوا ... ومـــا فعلـــوا الذى فعلـــوا
وتطالبهـــم بمـــا عملـــوا ... وأنت خلقت مـــا عملـــوا
فهـــل تنجيهـــم حجج ؟ ... وهل يزكو لهـــم عمـــل ؟
لئن أخـــذوا بمـــا عملوا ... فأعظم منـــه ما جهلـــوا ..

وهو ينظر الى قوله تعالى « وما تشاءون الا أن يشاء الله » وقوله : « والله خلقكم وما تعملون » وهو يمتدح المصطفى ولكنه لا يجرى على قاعدة المدح التقليدى ، بل يتجه اتجاها صوفيا ينظر فيه الى أثر الرسول فى نفسه ، والى رحمته التى شملته لأنه من المؤمنين وقد جعل الله الرسول بالمؤمنين رءوفا رحيما ويقول فى ذلك : ـ

مدحت المصطفى فمدحت نفسى
ولى قسم وما جاوزت قسمى

فأعمالى ترد على منه
ولو أرمى فعينى منه أرمى

وقد عصم الاله به وجودى
فان أرمى بسهم ليس يصمى

وهذى رحمة منه توالت
لدى بها يعود على سهمى

وظنى لم يزل ظنا جميلا
فان الظن منه عين علمى

وهو ينظر الى النبى المصطفى نظرة عظيمة تزكيها وراثته له ، ودليله فى هذه الوراثة اتباعه شريعته التى جاء بها ، ويقارن بينه وبين نبى الله موسى عليهما السلام ، ويبين أفضلية محمد صلى الله عليه وسلم ، بأن محمدا أسرى وعرج به أما موسى فقد كلم فقط .

ورثت الهاشمى اخا قريش
باوضح ما يكون من الدليل

أبايعـــه على الاســـلام كشــفا
وايمـــــانا لألحق بالرعيــل
أقوم به وعنـــه اليـــه حتى
أبينــه لأبنــاء الســـبيل
ســـرى فى النـــور حتى كان أدنى
من القـــوسين فى ظل ظليـــل
وشـــرف بالكلام أخـــوه موسى
عـــلى كثب وذلك بالمســـيل
وأين العـــرش من واد بقـــاع
كما أين الكليـــم من الخليـــل ؟

ويتشوق ابن عربى الى الكعبة والى الروضـــة الشريفة ، فيصوغ فى ذلك دررا غوالى تجمع بين الشوق والتكريم الصـــاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم فيقول : ــ

يا حبـــذا المســـجد من مسـجد
وحبـــذا الروضـــة من مشـــهد
وحبـــذا طيبـــة من بلدة
فيها ضـــريح المصطفى أحمـــد
صـــلى عليـــه الله من ســـيد
لولاه لـــم نفلح ولم نهتـــد
قـــد قـــرن الله به ذكـــره
فى كل يوم فاعتبـــر ترشـــد
عشـــر خفيات وعشـــر اذا
أعلن بالتـــأذين فى المســـجد

فهـــذه عشـــرون مقـــرونة
بأفضـــل الذكر الى الموعـــد

وتشـــوق ابن عربى الى الكعبة تغذيه الأســـرار الروحية التعبدية ، فتلهب ذلك الشوق وتحييه ، فلا ينطفىء حتى بمشاهدة الكعبة وطوافه حولها ، وهو يقول فى ذلك : —

انى الى الكعبـــة الغراء مشـــتاق
فيها لعاشقها في الســـر أعـــلاق

اذا تذكرت أســـرارى ومشـــهدها
فيها تحـــركنى للبين أشـــواق

الله يعلـــم أنى لست أذكـــرها
الا وعنـــدى لذاك الذكر احـــراق

فالروح تائهـــة والنفس والهـــة
والقلب محترق والدمع مهـــراق .

ويدعو ابن عربى الى اكتساب الحـــلال فى الرزق على طريقته فى تفسير المعانى تفسيرا صوفيا دقيقا ، يشـــير الى وجـــوب ادراك الأسرار الالهية فى كل شىء فيقول : —

في شـــهوة البطن سر ليس يعلمـــه
الا الذى شـــاهد الرزاق رزاقا

لولا الغـــذاء ولولا ســـر حكمته
ما لاح فـــرع ولا عاينت اعـــراقا

فكل حـــلالا اذا كان المحال مـــو
جودا بقلبك وهـــابا وخـــلاقا

وابن عربى يعلل دوران الزمان واختلاف الفصول تعليلا صوفيا ، يدركه العاقل الذى أدرك سر الحركة فى الوجود كله ، وهو على رأى الأستاذ سيد الأهل سباق فى نظرته تلك التى لم يحققها العلم الا حديثا ، وهو يقول في ذلك :

أتاك الشتاء عقيب الخريف
وجاء الربيع يليه المصيف
ودار الزمان بأبنائه
فمن دوره كان دور الرغيف
سرى فى الجسوم بأحكامه
تغذى اللطيف به والكثيف
عجبت لهم جهلوا ربهم
ويسعى القوى له والضعيف
فأصبح كالماء فى قدره
لديهم وفى الماء سر لطيف

وابن عربى فى أدبه عميق الفكرة دقيق المعنى ، لا ينظر الى ظواهر الأشياء ولكنه يتعمق الى خفاياها ، فيستنبط منها أسرارا عجيبة وأحكاما غريبة ، وكم من آكل وشارب ، وكم من مشاهد لتقلب الأيام واختلاف الفصول ، ولكن قليلا من هؤلاء هم الذين فطنوا الى الحكمة من هذا وذاك .

ابن عربى والموشحات :

وابن عربى كشاعر شارك فى النهضة الأدبية التى كانت شائعة فى الأندلس ، وسلك بنظمه كافة الاتجاهات الشكلية التى استعملها الشعراء حينذاك ، ومن بين ذلك الموشحات التى ازداد خطرها

فى الأندلس وأصبحت لها مكانتها ، وافتن الشعراء فيها افتنانا كبيرا ، واصبحت مجال سبق بينهم ، ومن نماذج موشحاته التى استشهد بها المقرى قوله : —

مطلع : سرائر الأعيان لاحت على الأكوان للناظرين
والعاشق الغيران من ذاك فى حران يبدى الأنين
دور : يقول والوجد أضناه والبعد قد حيره
لما دنا البعد لم أدر من بعد من غيره
وهيم العبد والواحد الفرد قد خيره
فى البوح والكتمان والسر والاعلان فى العالمين
أما هو الديان يا عابد الأوثان أنت الضنين
دور كل الهوى صعب على الذى يشكو ذل الحجاب
يا من له قلب لو أنه يذكو عند الشباب
قد قرب الرب لكنه افك فانو المآب
وناد يا رحمن يا رب يا منان انى حزين

ولا يخفى معرفة ما تدور حولها هذه الموشحة من معان صوفية روحية ، وفى الحقيقة لا يمكن الحكم على أدب « ابن عربى » بعيدا عن تصوفه ، لأن الأدب انما هو ترجمان الفكر ، واذا حكمنا غزارة الانتاج الى عمق أفكار « ابن عربى » وجدناه فى الأدب فارسا لا يشق له غبار . هذا الى جانب تمكنه القوى فى أن يعبر عن الحقائق العلمية بأسلوب أدبى منظوم أو منثور وكتبه العديدة غاصة بذلك اللون . والمقام يضيق عن عرض نماذج من ذلك .

نثر ابن عربى :

وللشيخ الأكبر نثر فى القمة الأدبية ، وكتابه « الفتوحات

المكية » خير نموذج لذلك ، وهو يعد دائرة معارف للعلوم الصوفية الى جانب ما يتميز به من سرد الحوادث فى أسلوب سهل متناسق ، ولا يغفل جانب التشويق فى بعض ما يعرضه من قصص ، ويحتوى الكتاب أيضا على نماذج مختلفة منها الوصايا والرسائل والحكم والمواعظ والمعارف الصوفية المختلفة ، وقد سبق عرض بعض نماذج من أسلوبه القصصى فى هذا الكتاب ، ومن نماذج أدبه الوصفى ما سيأتى بعد فى بيان صفة العارف . عند الحديث عن كتاب الفتوحات .

وفى نثره قد يلجأ الى استعمال السجع والزخرف اللفظى كما نرى فى هذه القطعة التى يكتب بها مقدمة « مواقع النجوم » : « لما شاء الله الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أن يبرز هذا الكتاب الكريم الى الوجود ، ويتحف خلقه بما اختاره لهم من لطائفه وبركاته فى خزائن جوده ، على يدى من يشاء من عبيده ، حرك خاطرى انضاء المطية ـ من مرسية الى المرية . فامتطيت الرحال ، واخذت فى الترحال ، مرافقا أطهر عصبة وأكرم فتية ... فلما وصلتها لأقضى امورا أملتها ، تلقانى شهر رمضان بهلاله ، وصافحنى على مسامرته بها الى أوان انفصاله ، فألقيت بها عصا التسيار ، واخذت فى الذكر والاستغفار » (١) ..

ونرى استعمال هذا الأسلوب الزخرفى فى بعض الكتب الأخرى ـ وهو أسلوب هذا العصر ـ مثل شجرة الكون ، ومحاضرة الأبرار، وشرح ترجمان الأشواق .

ومن نماذج نثره الذى يجمع بين الرسالة والوصية كتابه الى الملك كيكاوس صاحب بلاد الشمال ، ردا على رسالته التى أرسلها الى الشيخ الأكبر يستشيره فى بعض الأمور : « بسم الله الرحمن الرحيم،

---

(١) مقدمة مواقع النجوم .

وصل الاهتمام السلطانى الغالب بأمر الله العزيز أدام الله عدل سلطانه الى والده الداعى له محمد بن العربى ، فتعين عليه الجواب بالوصية الدينية ، والنصيحة السياسية الالهية ، على قدر ما يعطيه الوقت ، ويحتمله الكتاب الى أن يقدر الاجتماع ويرفع الحجاب ، فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : الدين النصيحة ، قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم وأنت يا هذا بلا شك من أئمة المسلمين ، وقد قلدك الله هذا الأمر ، وأقامك نائبا فى بلاده ومتحكما بما توفق اليه فى عباده ، ووضع لك ميزانا مستقيما تقيمه فيهم ، وأوضح لك حجة بيضاء تمشى عليها وتدعوهم اليها ، على هذا الشرط ولاك ، وعليه بايعناك فان عدلت فلك ولهم ، وان جرت فلهم وعليك ، فاحذر أن أراك غدا بين أئمة المسلمين من أخسر الناس أعمالا ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » .

والمتأمل فى أسلوب الرسالة يجدها غير متكلفة ، ويظهر فيها أثر الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف ، كما تغلب عليها المعانى الدينية والصوفية التى هى موضوعات كتبه كلها .

كما اننا نحكم منها على علو منزلته فى نفوس الحكام ورغبتهم في استشارته والأخذ بنصيحته وندرك منها حرصه على اسداء النصح لمصلحة المسلمين ما أمكنته الفرصة لذلك محملا الحكام مسئولية تقصيرهم نحو رعيتهم . وهذا منتهى الشجاعة الأدبية .

منزلة ابن عربى الأدبية :

لسنا فى حاجة الى ادراك منزلة « ابن عربى » الأدبية التى وضعته فى القمة بين أدباء المشرق والمغرب ، بل أصبح أحد الذين تمكنوا بمنزلتهم من التأثير فى الجو الأدبى الشرقى وقد جعله صاحب كتاب « الشعر الأندلسى » بصفة خاصة عاملا هاما فى ذلك التأثير

ويقول فى ذلك : أصبح أعلام الأندلس يخرجون « بزاد حافل من المعارف ينشرونها فى أقطار نائية ، ورجال مثل الحسين بن جبير ، ومحمد بن أحمد الصابونى وابن خروف سينقلون دور الشعر الأندلسى الى آفاق بعيدة . أما الششترى المتوفى سنة ٦٦٨ هـ ومحيى الدين بن عربى بصفة خاصة (٥٦١ – ٦٣٨ هـ) فسينقلان الى مدائن الشرق المشرق ماكان يفيض به قلباهما من حرارة الشوق الالهى ، وحيرة الصوفية وأحلامها الشاطحة ، وسيقضيان أيامهما فى مكاشفة الدراويش ومقاسمتهم العيش » (١) .

ويقول الدكتور « محمد مصطفى حلمى » عنه : لقد خلف « ابن عربى » تراثا رائعا فى الحب الالهى أشرقت بالأنوار الالهية صفحاته وعبقت بالأسرار القدسية نفحاته (٢)

أما الدكتور زكى مبارك فيقرر عنه أنه « فتح الباب أمام الدارسين من الصوفية والفقهاء فكانت كتبه مبعث نهضة أدبية قليلة الأمثال .. ان ابن عربى لا تعرف أهميته فى عالم الأدب والأخلاق الا اذا فكرنا جيدا فيما ترك من الثروة الأدبية والأخلاقية، يجب أن نتذكر أنه ترك ألوف الصفحات ومئات القصائد وأنه راض اللغة على الطواعية للرموز والاشارات » (٣) . وتلك براعة من غير شك .

هذا رأى أدباء العصر الحديث ونقادهم ، أما آراء من سبقوهم فى أدب « ابن عربى » فتظهر فى تقريظهم له ، ومن ذلك قول ابن الأبار عنه : « انه أخذ عن مشيخة بلده ومال الى الآداب » وقول ابن النجار « له أشعار حسنة وكلام مليح ، اجتمعت به فى دمشق

---

(١) الشعر الأندلسى لأميلوفرسيه غومس – ترجمة حسين مؤنس – ص ٣٤ .

(٢) ابن الفارض سلطان العاشقين ص ٨٣ .

(٣) التصوف الاسلامى فى الأدب والأخلاق ج ١ ص ٢٠٣ .

فى رحلتى اليها وكتبت له شيئا من شعره » وقول ابن مسدى : « انه كان جميل الجملة والتفصيل ، وله فى الأدب الشـــأو الذى لا يلحق والتقدم الذى لا يسبق » وجاء فى عنوان الدراية « هو فصيح اللسان بارع فهم الجنان ، قوى على الايراد كلما طلب الزيادة يزاد » وقال المقرى : « ونظـــم الشيخ محيى الدين هو البحـــر الذى لا ساحل له » .

كل ذلك يلقى الضوء على هذه الشخصية الأدبية الرائعة التى كان صاحبها يعتز بالكتاب والعلم والأدب أيما اعتزاز .

ابن عربى الصوفى

التصوف ليس علما مكتسبا :

لقب ابن عربى بالشيخ الأكبر كمـــا لقب بسلطان العارفين ، وهذان اللقبان لم يطلقا عليه اعتباطا ، ولكنهما أطلقا عليه عن جدارة فائقة بناء على ما وصل اليه من مكانة رفيعة فى التصوف وعلومه وأذواقه .

والتصوف فى حقيقة الأمر ليس علما مكتسبا يستطيع الانسان أن يحصله بالقراءة ، ولو أفنى فى ذلك زهرة شبابه ونضارة حياته ، ولكن التصوف ذوق يكتسب بالعمل والسلوك والتهذيب النفسى والخلقى . وحين ذلك تثمر هذه المجاهدة أحوالا وأذواقا . قد يعبر عنها الصوفى أو لا يعبر .

ولن يهتدى العقل اطلاقا وحده الى المعرفة الصوفية وحقيقتها بدون سلوك ومجاهدة ، وهذان لابد لهما من ارشاد شيخ عارف بصير خبير بمسالك الطريق ودروبه وشعابه .

والتربية فى الطريق الصوفى أمر له أهميته ، ويعول عليهـــا الصوفية تعويلا كبيرا ، ولا يكاد يوجد فذ من أفذاذ الطريق دون أن يكون له موجه ومرشد يدله على طرق الجهاد ووسائله حتى ينتصر ويدرك ويبصر .

ولقد بلغ « الغزالى » أعلى المنازل العلمية ، وتبوأ عرش المعارف الفكرية ، وقرأ كثيرا من كتب التصوف ، ولكنه لم يصبح صوفيا الا منذ أن أخذ بيده شيخه « يوسف النساج » الى طريق الخير ، وفتح عيونه على مغاليق المعرفة ، فأدرك مالم يكن يدور فى خلد ، وما لم يكن له فى حسبان .

والمعرفة الصوفية أسرار أكنها الله واختص بها أصفياءه وجعل الطريق اليها محفوفا بالمخاطر والمعوقات ، ولن يتمكن من سلوكه الا من وطد عزمه على اجتيازه ، وجاهد جهادا شاقا ، حتى اذا ما انتصر فى جهاده ارتفع الحجاب الكثيف الذى غطى على بصره وبصيرته ، فأدرك من الحقائق فى نفسه وفيما يحيط به ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

والقرآن الكريم يزكى ذلك بقوله : « واتقوا الله ويعلمكم الله » والحديث الشريف يقول : من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم . وليس غريبا أن يكون للسلوك القويم أثر فى تهذيب الوجــدان وفي تصفية النفس وتنقيتها وأجلاء مرآتها فتدرك من المعانى أعمقها وتلهم من الأسرار أدقها . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : « اذا رأيتم الرجل اقد أوتى زهدا فى الدنيا ومنطقا فاقتربوا منــه فانما يلقن الحكمة » . وقيل : « اذا زهد العبد فى الدنيا وكل الله تعالى به ملكا يغرس الحكمة فى قلبه » (١) .

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود فى هذا المعنى « التصوف ليس ثمرة لثقافة كسبية ، ان الوسيلة اليه ليست هى الثقافة ، ولكن الوسيلة اليه انما هى العمل ، ان الطريق اليه انما هو السلوك . والمعرفة الناشئة عن العمل والسلوك هى الهام وهى كشف وهى

---

(١) الرسالة القشيرية .

ملأ أعلى انعكس على البصيرة المجاوة ، فتـــذوقه الشخص حالا واحس به ذوقا وأدركه الهاما وكشفا » (١) .

والدكتور عبد الحليم محمود يقرر هذا الكلام حين يتحدث عن عدم تأثر سيدى أبى الحسن الشاذلى بمصادر أثرت فى ســلوكه أو اتجاهه أو ذوقه ، بناء على أن التصوف لا يدرك بالتلقين أو البحث أو الدراسة ولكن حقائقه تورث بالعمل والسلوك والمجاهدة ، وان كان ذلك يحتاج الى مرشد وموجه يأخذ بطريق المريد حتى يمسك بزمام نفسه ، ثم يقول له : ها أنت وربك ، وهذا كما فعـل « ابن مشيش » مع « الشاذلى » رضى الله عنهما .

كيف تكونت شخصية « ابن عربى » الصوفية ؟

وهذا الكلام مفيد نصل منه الى ما نريد ، وهو الاجابة على هذا السؤال : كيف تكونت شخصية ابن عربى الصوفية ؟ .

تكونت شخصية ابن عربى بواسطة جهاد شاق مرير متواصل تعددت ألوانه وطرقه ولم تخرج على النمط الصوفى المعروف ، وهو القيام برياضات مختلفة تتنوع بين العزلة والسياحة والجوع والصمت والذكر والتفكر ومجالسة الصالحين واختيار الرفقاء وحمل النفس على ما تكره من أنواع المشقة فى ضوء الالتزام بالشرع الحنيف .

وتم ذلك بتوجيه وارشاد ظهر من سلسلة الشـيوخ الذين التقى بهم ابن عربى وانتفع بنصحهم . وقد سبق الاشارة اليهم .

ولم يغفل فى طريق ذلك الافادة من الكتب الصوفية التى وضعها بالهام من الله كبار الصوفية ، وفى مقدمة ذلك .. الرســالة القشيرية .. التى لا تزال مرجعا هاما فى التصوف ومؤلفها الامام

(١) أبو الحسن الشاذلى ص ٢٠٨ .

العالم أبو القاسم بن هوزان القشيرى المتوفى سنة خمس وستين وأربعمائة . وقد صرح « ابن عربى » أنه قد أفاد منها فى بدء سلوكه الطريق (١) .

وكتاب « ختم الأولياء للحكيم الترمذى » وقد كان هذا الكتاب مثار اهتمام الصوفية ومحيى الدين بن عربى بصفة أخص (٢) وألف حوله كتابا يجيب فيه عن الأسئلة التى طرحها هذا الحكيم فى كتابه .

وكتاب « احياء علوم الدين » للغزالى ، وأهميته لا تخفى على أحد ، وقد ألقى فيه « ابن عربى » دروسا عامة فى مكة (٣) .

كما قرأ كتبا أخرى أشار الى بعضها فى مقدمة كتابه محاضرة الأبرار وذكر منها : مقامات الأولياء لأبى عبد الرحمن السلمى ، وطبقات الصوفية للسلمى أيضا ، وكتاب العزلة للخطابى وكتاب النور وكتاب درجات التائبين ومقامات القاصدين للهروى ، وكتاب حلية الأولياء لأبى نعيم وغيرها .

هذه الكتب التى قرأها « ابن عربى » كان لها أثر من غير شك فى توجيهه الى جانب شيوخه الذين التقى بهم .

سلك « ابن عربى » الطريق الصوفى صغيرا ، فقد كان الحافز الروحى يدفعه دفعا منذ صغره ، وقبل أن يموت والده كان قد اتجه الى القيام ببعض الرياضيات المختلفة ومن بينها العزلة ، مما أثار اهتمام « ابن رشد » كما سبق الاشارة الى ذلك . ولكن « ابن عربى » كان قد أخذ بحظ وافر من العلوم الشرعية ، وبلغ فى اكتسابها مبلغا كبيرا .

---

(١) ابن عربى ص ١٠٥ .
(٢) أبو الحسن الشاذلى ص ٥٢ .
(٣) ابن عربى ص ٢٦٣ .

واذن فقد كان تصوفه مبنيا على هدى ويقين ، وعلى أساس متين من الشرع الحنيف ، و « ابن عربى » يقرر مرارا أن تصوفه خال تماما من أى اتجاه آخر غير الكتاب والسنة واجماع المسلمين ، ولذلك نراه يكره التقليد ، وقد أشير الى ذلك . وعلمه هذا جعله علما فى علوم الظاهر قبل أن يصبح علما فى علوم الباطن ، وهو الذى أنار له الطريق ليكون سلوكه عن معرفة وثبات وعزم ، وليكون ذلك عاصما له من الزلل أو الرجم بالغيب أو الخطأ .

وأتاحت له فرصة تعرفه على شيوخ الصوفية تمرسه بآدابهم وقيامه عمليا بأنواع المجاهدات التى أخذ بها نفسه حتى تمكن من الانتصار على نفسه ، ومن نقطة الانتصار على النفس كانت انطلاقته العليا الى فضاء الروح الواسع غير المحدود بقيود المادة والحس .

وقد سبق الاشارة الى أن صحبة الشيوخ مفيدة فى توجيه السلوك ، وليس الشيخ مؤثرا فى المريد بقدر ما هو موجه لسلوكه ، حتى يوقفه على مسالك الطريق ، ثم يهتف به : أن انطلق فقد أصبحت على يقين من خطوك .

وليس أدل على ذلك من أن كثيرا من التلاميذ فاقوا أساتذتهم ذوقا ومعرفة وادراكا ووصلوا الى مقامات قصرت عنها همم مرشديهم وموجهيهم ، وما ذلك بغريب ، فالفروع قد تفوق الأصول، والأبناء قد يسبقون الآباء ، ولو وقفت همة مريد عند همة شيخه لما كان هناك مكان للطموح ، ولما أصبح مجال للتقدم والسبق ، ولتوقفت الخطوات عند مكان ما لا يبرحه هذا أو ذاك .

و « ابن عربى » تلميذ نجيب من غير شك صاحب شيوخه فانتفع بارشادهم واستفاد منهم سلوكا كان له أثره الطيب المحمود فيما وصل اليه من الهام ومعرفة .

والطريق الصوفى مجاهدات ومعارف ، والمجاهدات طريق

المعارف ، والمعارف ثمار المجاهدات ، وهؤلاء الشيوخ وغيرهم الذين التقى بهم « ابن عربى » كان لهم أثرهم الذى أوضح الرؤية أمام عينيه ، وجعله يتقدم فى طريقه الذى اختاره لنفسه بخطوات ثابتة ، وقطعت الطريق على كل شك خالج نفسه فى صدر حياته الأولى ، ولم يكن لأحد هؤلاء الشيوخ املاء خاص مذهبى فرضه على « ابن عربى » الذى ما لبث أن أصبحت له شخصيته المستقلة التى انطلقت تجوب الآفاق ، تلتقى بالرجال ، وتأتلف بالاخوان ، وتوطد المكانة التى ظفرت بها على مر الزمان .

تمسكه بالشرع :

وكان « ابن عربى » طوال حياته دقيقا فى تمسكه بالشرع الحنيف ، ويحاسب نفسه محاسبة دقيقة على آدابه ، وكان يعتقد اعتقادا جازما أن الخروج على الشرع حرمان وزيغ ومخافة ، كما كان يعتقد أن الطريق السليم لادراك المعرفة الصافية هو طريق الشرع لا طريق العقل ، ويقول فى ذلك :

لا تعتقد غير الذى تناوه فى
النص الذى نطق الكتاب المحكم

وعليه فاعتمدوا وقولوا مثلما
قد قاله عن نفسه واستلزموا

واعبد اله الشرع لا تعبد اله
العقل من هادوا اليه وسلموا

فالناس مختلفون فى معبودهم
فمنزه معبوده ومجسم

وهذه الأبيات تعطينا صورة حقيقية عن حياة الشيخ الأكبر ، هى اعتزازه القوى بالشرع ، واعتماده فى ادراك العلم على الذوق

والكشف لا على العقل ، ولذلك لم يعول اطلاقا على الفلسفة ، ونفر منها نفورا شديدا ، وقد مر بنا كيف كانت مقـــابلته لابن رشد فيلسوف زمانه وكيف رثى لحاله ، وكيف اتهم أحد الفلاسفة بالكفر حينما رآه يقول فى أحد كتبه : وأنا أريد فى هذا الفصل أن ننظـــر كيف نصنع الها فى العالم .

ولكن نفوره من الفلسفة لم يمنع أن يكون مرنا غير متزمت فى مناقشة حججهم . ولذلك نسمعه ينصح فى مقدمة الفتوحات بعدم المبادرة الى انكار أقوال الفلاسفة والمتكلمين اذ ربما يكون فى كلامهم ما يوافق الشرع والعلم الصحيح ، ويقول فى ذلك : « اياك أن تبادر الى انكار مسألة قالها فيلسوف أو معتزلى مثلا ، وتقول : هـــذا مذهب الفلاسفة أو المعتزلة ، فان هذا قول من لا تحصيل له ، اذ ليس كل ما قاله الفيلسوف مثلا يكون باطلا ، فعسى أن تكون تلك المسألة مما عنده من الحق ، ولا سيما ان كان الشارع صلى الله عليه وسلم صرح بها ، أو أحد من علماء الأمة من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين ، وقد وضع الحكماء من الفلاسفة كتبا كثيرة مشحونة بالحكم والتبرى من الشهوات ومكايد النفوس وما انطوت عليه من خفايا الضمائر ، وكل ذلك علم صحيح موافق للشرع ، فلا تبادر يا أخى الى الرد في مثل ذلك وتمهل ، وأثبت قول ذلك الفيلسوف حتى تحد النظر ، فقد يكون ذلك حقا موافقا للشريعة لكون الشارع قال تلك المسألة أو أحد من علماء شريعته » (١) .

وهذه النصيحة العاقلة التى ترسم الطـــريق الصحيح لأدب البحث والمناقشة تحمل الاعزاز الكامل للشرع والاصرار على عدم مخالفته ، وقبول كل مايوافقه ، وفى الأبيات التالية يوضح طريق العلم الصحيح ، ويقرر أن العلم الموهوب لا يكون الا بالحفاظ على الشريعة والتفانى فى الطاعة والعبادة :

---

(١) اليواقيت والجواهر ص ٣٣ .

ما لقومى عن حديثى فى عمى ... ما أظن القوم الا ندما
أخذوا العلم عن الفكر وعن ... كل روح ما له علم بما ـ
عندنا من جهة العلم به ... جل أن يفهم أو أن يفهما
هكذا قالوا وما عندهمو ... خبر الذوق بعلم العلما
فعلوم القوم من أنفسهم ... وعلومى من اله حكما
أنه يعطى الذى يعلمه ... لعبيد لم يزالوا رحما ـ
بينهم تبصرهم قد وقفوا ... فى المحاريب وصفوا القدما .

فهو يفرق بين العلم الذى يكتسبه الانسان من العلماء وبين العلم الذى يهتدى اليه من الله ، والعلم الثانى يفوق الأول ، لأنه جاء عن طريق الذوق للحقائق وادراك الأسرار ، أما الأول فليس الا صفات معلومة وسطورا مركومة ، وهو يلوم قومه لأنهم لا يبحثون حديثه فيدركون صدقه ويعرفون أن علومه موهوبة وعلومهم مكسوبة ، وفرق بعيد بين العلم الوهبى والعلم الكسبى ، والله سبحانه وتعالى لا يهب علمه الا لقوم خشعوا وتخلقوا بصفات المؤمنين الذين يقول فى حقهم : رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا (١) .

وطريق العلم الحقيقى المأخوذ عن الكشف والذوق هو تعظيم الشريعة واجلالها واقامتها اقامة صحيحة وهو يقول فى ذلك :

تعظيم ربك فى تعظيم ما شرعا
فاصدع فان سعيد القوم من صدعا

والشريعة هى الطريق الصحيح لتحصيل السعادة ، وهذه القصة التى يقدمها لنا فى الفتوحات يمكن أن تعطينا دليلا آخر على

---

(١) منبر الاسلام عدد شوال ٣٨٦ هـ وصفر ٣٨٧ هـ .

مدى تمسكه بالشرع . يقول : « رأيت فى واقعة وأنا ببغداد سنة ثمان وستمائة قد فتحت أبواب السماء ، ونزلت خزائن المكر الالهى مثل المطر العام ، وسمعت ملكا يقول : ماذا نزل اليه من المكر ؟ فاستيقظت مرعوبا ، ونظرت فى السلامة من ذلك فلم أجدها الا فى العلم بالميزان المشروع ، فمن أراد الله به خيرا وعصمة من غوائل المكر فلا يضع ميزان الشرع من يده .. » (١) .

وهو يلح على هذا المعنى كثيرا ، فقد نقل ابن العماد عنه قوله « العارف يعرف ببصره مايعرفه غيره ببصيرته ، ويعرف ببصيرته مالا يدركه أحد الا نادرا ، ومع ذلك فلا يأمن على نفسه من نفسه فكيف يأمن على نفسه من مقدور ربه ؟ وهذا مما قطع الظهور سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » (٢) .

وينقل الشعرانى عنه قوله فى الباب السادس والأربعين ومائتين من كتاب الفتوحات : « اياك أن ترمى ميزان الشرع من يدك فى العلم الرسمى بل بادر الى العمل بكل ما حكم به وان فهمت منه خلاف ما يفهمه الناس مما يحول بينك وبين امضاء ظاهر الحكم به فلا تعول عليه ، فانه مكر الهى بصورة علم الهى من حيث لا تشعر ، ثم قال : واعلم أن تقديم الكشف على النص ليس بشىء عندنا لكثرة اللبس على أهله ، والا فالكشف الصحيح لا يأتى قط الا موافقا لظاهر الشريعة ، فمن قدم كشفه على النص فقد خرج عن الانتظام فى سلك أهل الله ولحق بالأخسرين أعمالا » (٣) .

ويعلل الشيخ الأكبر لكون علوم الوهب لا تأتى عن روية وفكر بقوله « لو كانت علوم الوهب نتيجة عن فكر أو نظر لانحصرت فى

---

(١) ابن عربى ص ٦٩ .

(٢) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٦ .

(٣) اليواقيت والجواهر ص ٣١ .

أقرب مدة ، ولكنها موارد تتوالى من الحق على خاطر العبد ، والحق تعالى وهاب على الدوام فياض على الاستمرار والمحل قابل على الدوام » (١) . والتوالى لا يكون الا بالمحافظة على الشريعة والاستمساك باقامتها .

فهذه العوامل التى اجتمعت من استعداد « ابن عربى » لسلوك الطريق الصوفى ، الى جانب اجتماعه على شيوخ أعانوه على هذا الطريق ، الى جانب ماقرأ من كتب حببته فى هذا الطريق ، الى جانب التزامه جانب الشرع فى طريقه وعدم حيدته عنه ، كل ذلك كون له شخصيته المستقلة العظيمة التى كان لها ذلك الانتاج الصوفى الضخم عملا وعلما .

ثمار التصوف :

وسرعان ما ظهرت ثمار التصوف فى حياة « ابن عربى » بناء على ذلك النهج الذى انتهجه .

ظهرت فى صورة عزوف كامل عن الدنيا ولذاتها ، فجر ذلك ينابيع الحكمة فى قلبه ، فانجلت عين بصيرته ، وارتفعت حجب الكثافة البشرية فأبصر وأدرك ، واستشف كثيرا من المعانى عن طريق الكشف أو الالهام .

وبدأ ذلك الكشف عنده بواسطة الرؤى الصادقة التى ورد عنها الأثر الكريم : لم يبق من علامات النبوة الا المبشرات ، قيل : وما المبشرات ؟ فقال : الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له .

وكثيرا ما رأى « ابن عربى » رؤى تحققت فى عالم اليقظة كما رآها ، ومن ذلك ما يقصه عن رؤياه التى رأى فيها النبى صلى الله

---

(١) الكبريت الأحمر ص ٦ .

عليه وسلم اقتلع من أحد شوارع « أشبيلية » التى يكثر المرور فيها نخلة كانت تعترض طريق المارة ، فلما أصبح وجـد تحقيق رؤياه .

وهناك أثر يقول : وحى المؤمن منامه .. وذلك واقع وصدق ومتواتر فكثير من الناس تتحقق أمامهم فى الحياة أشياءِ كانوا قد رأوا عنها اشارات أو رأوها بعينها فى المنام .

وقد صاحبت هذه الرؤى الصادقة الشيخ الأكبر فى حيـاته وزاد عليها ماكان يراه من تجليـات ، هى غريبـة فى عالم الحس والعقل ، ولكنها ليست غريبة فى عالم الحقيقة والكشف ، ومن ذلك مشاهدته بعض الأشخاص يقتحمون عليـه خلوته والباب مغلق عليه ، فيحادثهم ويحادثونه ثم ينصرفون دون أن يفتح باب أو مصراع أو نافذة .

ثم يزيد على ذلك ما كان يصاحب جسده من اشراق فى أثناء ذكره ، ينبعث من باطنه حتى يبدد ظلام الحجرة التى يوجد فيها ، وقد حدثت له هذه الواقعة فى أكثر من مكان ، ومنها « مصر » فى أثناء زيارته لها .

ويزيد على ذلك أن يكون له لقـاء خاص مع أرواح الأنبيـاء والأولياء والمؤمنين السابقين على أنحاء مختلفة يفصـلها تلميذه « صدر الدين القونوى » بقوله : « كان شيخنا ابن عربى متمكنا من الاجتماع بروح من شاء من الأنبياء الماضين على ثلاثة أنحاء : ان شاء الله استنزل روحانيته فى هذا العالم وأدركه متجسدا فى صورة مثالية شبيهة بصورته الحسية العصرية التى كانت له فى حياته الدنيا ، وان شاء أحضره فى نومه ، وان شـاء انسلخ عن هيكله واجتمع به » (١) .

---

(١) شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٩٦ .

وقد أشار شـــارح الصلوات الادريسية الى محادثة الشيخ الأكبر للنبى ادريس عليه السلام والى محادثته للنبى موسى ، كما أشار هو الى ذلك فى مواضع مختلفة من كتاب الفتوحات ، ومن ذلك قوله فى الباب السابع والستين وثلاثمائة : « اجتمعت روحى بهارون عليه السلام فى بعض الوقائع ، فقلت له : يا نبى الله ، كيف قلت : فلا تشمت بى الأعداء ؟ ومن الأعـــداء حتى تشهدهم ؟ والواحد فينا يصل الى مقام لا يشهد فيه الا الله ؟ فقال لى السيد هارون عليه الصلاة والسلام : صحيح ماقلت فى مشهدكم ، ولكن اذا لم يشهد أحدكم الا الله فهل زال العالم فى نفس الأمر كما هو فى مشهدكم ؟ أم العالم باق لم يزل وحجبتم أنتم عن شهوده لعظيم ما تجلى لقلوبكم ؟ فقلت : العالم باق فى نفس الأمر لم يزل ، وانما حجبنا نحن عن شهوده ، فقـــال : قد نقص علمكم بالله فى ذلك المشهد بقدر ما نقص من شهود العالم فانه كله آيات الله ، فأفادنى عليه الصلاة والسلام علما لم يكن عندى » (١) .

وقد تكون هذه المحادثة تمت على نحو من هذه الأنحاء المتقدمة .

وعلى نحو من ذلك كان لقاؤه المتكرر للخضر عليه السلام وقد أشار « ابن عربى » الى هذا اللقاء عدة مرات .

وظهرت ثمار التصوف فى غير ذلك ، ظهرت فى تلك الخوارق والكرامات التى كانت للشيخ الأكبر والتى يضيق المقام عن ذكرها ، كما ظهرت فى معارفه الفائقة التى فاضت بها أشعاره وامتلأت بها كتبه ومصنفاته .

خرقة التصوف :

ولابد أن يكون الشيخ الأكبر قد أصبح من الوجهة الرسمية صوفيا بكل ما تحتويه هذه الكلمة من معان ، والصوفى الرسمى

(١) اليواقيت والجواهر ص ٧٩ .

هو الذى يلبس خرقة التصوف . « وابن عربى » كانت له وجهة نظر حول هذه الخرقة أولا ، فقد كان ينظر اليها على أنها اشارة لمعان وجدانية تهدف الى تهذيب السلوك وتقويم النفس والخلق ، وهو يشير الى ذلك بقوله : « وكنت قبل ذلك لا أقول بالخرقة المعروفة الآن ، فان الخرقة عندنا انما هى عبـــارة عن الصحبة والأدب والتخلق ، ولهذا لا يوجد لباسها متصـــلا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن يوجد صحبة وأدبا ، وهو المعبر عنه بلباس التقوى » فى قوله تعالى « ولباس التقوى ذلك خير » .

وقد ارتدى « ابن عربى » خرقة الصوفية أكثر من مرة ، فقد لبسها على يد شيخه على بن عبد الله بن جامع ، وكان الخضر قد ألبسها بنفسه لهذا الشيخ ، ولبسها « ابن عربى » فى الموضع الذى ألبسها الخضر للشيخ .

كما لبسها قبل ذلك على يد شيخ آخـــر هو « تقى الدين عبد الرحمن بن على بن ميمون النوروزى » والخرقة أيضا كانت خرقة الخضر .

ويذكر فى الباب الخامس والعشرين من الفتوحات أنه لبس الخرقة من يد الخضر نفسه تجاه باب الكعبــة ، وكان قبل ذلك لا يقول بلباسها (١) .

وقد أضاف « ابن عربى » منذ ذلك الوقت الى وجهة نظره الأولى حول الخرقة الادراكات الذوقية التى تصـــاحب الرداء الحسى ، والتى يعبر عنها بقوله : ــ « جرت عادة أصحاب الأحوال اذا رأوا واحدا من أصحابهم عنده نقص فى أمر ما ، وأرادوا أن يكملوا له حاله اتحد به هذا الشيخ ، فاذا اتحد به أخذ ذلك الثوب الذى عليه فى ذلك الحال ، ونزعه وأفرغه على الرجل الذى يريد

---

(١) الكبريت الأحمر ص ١٤ .

تكملة حاله ، ويضمه فيسرى فيه ذلك الحال ، فيكمل له ذلك الأمر فذلك هو اللباس المعـروف عنـدنا والمنقول عن المحققين من شيوخنا » (١) .

وهذا الكلام وان بدا غريبا من جهة عدم امكان حدوث اتحاد بين شيخ ومريد الا انه فى عالم الحقيقة غير غريب ، فان الصفاء الروحى الذى يكون بين شخصين تمـازجا وتصافيا وصلح أن يقول أحدهما للآخر : يا أنا ، يجعل الاتحاد الروحى غير مستحيل بينهما ، ويصدق ذلك قول « أبى الحسن الشاذلى » لتلميـذه « المرسى » رضى الله عنهما : « ما صحبتك الا لتكون أنت أنا وأنا أنت »(٢) .

وقد اعتز « ابن عربى » بخرقة التصوف وألبسها بيده لكثير من مريديه ، وقد أشار الى ذلك فى أشعاره ومؤلفاته .

وخرقة التصوف لها آداب وشروط ، وهى ليست مجرد ثوب يلبس ، ولكنها اشارة الى منزلة من منازل القوم ، فيها يوطنون أنفسهم على احتمال الأذى وانكار الذات واذلال النفس رغبة في اعزاز الروح وأضـعاف النوازع البشرية طلبا للأنس الروحى ، يقول الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل : « أما الصـوفية فانهم يلبسون الخرقة الظاهرة بحجة ابعاد أبصار الناس عنهم استجلابا لأذاهم واحتقارهم ، وبقدر ما يصيبهم الأذى والاحتقار من الناس يدنون من الله ويلجئون اليه ويكون ذلك دفعا اليهم عن الأغيار » (٣) .

وفى عبارة « ابن عربى » المتقدمة اشارة الى ذلك ، ولعل السر فى أثر الخرقة يرجع الى ما تحمـله روح الشيخ من توجيه الى

---

(١) ابن عربى ص ٦٣ .
(٢) طبقات الشعرانى ج ٢ ص ١٣ .
(٣) منبر الاسلام ــ شعبان ٣٨٦ هـ .

روح اللابس فتتأثر بها وتحاول أن تحلق معها فى أجواء المعرفة والمشاهدات ، ولذلك لم يسمحوا بارتداء الخرقة لكافة المريدين ولكنهم حين يشاهدون من أحدهم استعدادا خاصا يكون هو المراد .

ولابس الخرقة من حقه أن يغبط حينئذ لأنه وصل الى منزلة رفيعة وغاية كريمة ، يقول « ابن عربى » معبرا عن ارتدائه خرقة التصوف عن طريق الرمز لنفسه باسم « شرف » :

سألت شرف أن نلبسها — خرقة القوم على شرط الوفا
حين ثابت عندنا من كل ما — كان منها قبل هذا سلفا
فأجبناها الى ما سألت — باعتقاد ووداد وصفا
وأمرناها بأن نلبسها — كل من كان بخير عرفا
وهى لما لبستها سبحت : — حسبى الله تعالى وكفى .

فهو هنا يوضح أن نفسه حين لجأت الى التوبة وتطهرت من المعاصى كان من حقها أن تسمى « شرفا » وأن تطلب ارتداء الخرقة لتصبح من القوم « وانها لتستحق ذلك بعد التوبة والاشهاد عليها أمام الأتقياء واستمرارها على الطهارة والتوكل والرواح الى الله وحده بقلب منيب ومثل هذه النفس يحق لها أن تطلع على أسرار القلوب ، فتعرف منها الخير والذى لا خير فيه فتولى نحو الأول وتعزف عن الثانى ، وانقطاعها الى الله وحده والتسبيح بحمده دون الأغيار يكفيها فى درجة المعرفة وييسر لها طريق الوصول » (١) .

---

(١) منبر الاسلام ـ جمادى الأولى ١٣٨٦ هـ .

مجاهدة وأذواق ومعارف

التصوف مجاهدة ومعرفة . والمعرفة ثمرة من ثمار المجاهدة ، كما أن المجاهدة طريق لتحصيل المعرفة . وأى تعبير يدور حول المجاهدة والحث عليها هو صدى التصوف العملى ، كما أن التعبير عن الثمار التى تثمرها المجاهدة صدى للتصوف النظرى .

والمجاهدة فى الطريق الصوفى سلوك وأخلاق ، فالسلوك يكون بالتزام ألوان خاصة من العبادة والطاعة يضاف اليها ألوان تختلف سهولة وعنفا من الرياضات على حسب حالة السالك وما يرتئيه الموجه .

ولا تكاد تخلو طريقة من طرق الصوفية من ذلك الالزام الذى تأخذ به مريديها فى حزم حتى يصلوا الى الغاية المطلوبة .

ولن يتقدم المريد خطوة واحدة مالم يكن له من الخلق زاد وراحلة . والصوفى يحتاج الى ما يستحث خطاه ويقوى عزمه ويثبت ارادته ، فكان لابد من تعبير أدبى يصاحبه فى رحلته ويشد من أزره ويقيم معوجه ويعينه على عثرات الطريق ، ويبين له آداب الطريق وما يجب أن يأخذ وما يدع .

أذواق ابن عربى ومعارفه فى ذلك :

وقد نظم أدباء الصوفية ونثروا فى هذه المعانى الشىء الكثير ، وابن عربى لم يغفل هذه الناحية فى شعره ونثره ، فكتب عنها مدققا

ومقعدا وواضعا خطوات يسير عليها أبناؤه وتلاميذه وغيرهم ممن تجتذبهم الطريق ويستهويهم الهدى .

كما كتب عنها مستحثا ودافعا الى مواصلة الجهاد فى ذلك الطريق ، وبذلك يكون قد أدى للتصوف العملى حقه من الأداء فى اتجاهين :

الاتجاه الأول : الطريق الصوفى وما يحتاج اليه من آداب ومعاملات وما يلزم المريد فيها من ضرورات كاتخاذ الشيخ وتصحيح الارادة وملاحظة الوقت والمداومة على الورد وغير ذلك مما يعد الحديث فيه من قواعد التصوف ، والكتابة فى ذلك أدخل فى باب العلم الصوفى .

والاتجاه الثانى : هو الحث على سلوك الطريق والدعوة الى التخلق بالأخلاق الفاضلة من زهد وتوبة وصدق وايثار وغير ذلك مما يعد الحديث فيه صدى لعاطفة تجعله أدخل فى باب الأدب الصوفى ، وقد سبق الاشارة الى ذلك .

وقد ترك الشيخ الأكبر فى ذلك ذخيرة حية وكتبه التى طبع منها وما لم يطبع تعد ثروة للتصوف لا تنفد ذخائرها ، فقد عبر فيها عن كل شىء يتصل بالتصوف ، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة الا وأدلى فيها ببيان .

تناول الشيخ الأكبر المريد من بدء سلوكه الى نهاية مرحلة فى الطريق ، وأوضح له فى كل خطوة يخطوها ما يجب عليه وما يستحب له . ويمكن تلخيص ذلك عن كتبه العديدة التى حفلت بكل هذه المعانى والتى جاء بعضها خاصا بذلك ، وجاء بعضها تتناثر فى ثناياه تلك المعلومات والمعارف ، ونذكر بعض آرائه هنا للبيان :

١ ــ ضرورة اتخاذ الشيخ :

أول ما ينبغى للمريد عمله التوبة ، ويجب له أن يبحث له عن شيخ فاضل متمكن توفرت فيه الشروط اللازمة لتربية المريدين ،

وقد أشار الى ذلك بقوله : شرط الشيخ أن يكون عنــده جميع ما يحتاج اليه فى التربية (١) ويقول : لابد أن يكون عند الشيخ دين الأنبياء وتدبير الأطباء وسياسة الملوك وحينئذ يقال له أستاذ (٢) .

والشيخ ضرورى فى رأى « ابن عربى » فهو يقول : من لم يكن له أستاذ فان الشيطان أستاذه (٣) . وهو ينظر فى ذلك الى ضرورة القدوة ، والى أن العقل وحده لا يكفى فى اكتساب المعرفة الحقيقية، وقد سبق الاشارة الى ذلك والى اعتقاده بأن العلم الحقيقى لا يتم الا عن طريق الذوق أو الكشف ، وهذان لا يتمان الا بواسـطة التهذيب النفسى والخلقى على يد بصير عارف متمكن .

و « ابن عربى » فى ذلك يبنى رايه على تجربة خاصة اكتسبها من شيوخه الذين صحبهم وقد وافق على هذا الرأى من سبقه ومن لحقه من أئمة التصوف .

فالكلاباذى صاحب التعرف على مذهب اهل التصوف ينشد لبعض الكبار :

من رامه بالعقل مسترشدا سرحـه فى حـيرة يلهـو
وشــاب بالتلبيس أسراره يقول من حيرته هل هو ؟(٤)

والشيخ حسن رضوان صاحب مطهرة النفوس ينظم ما ننشره هنا باختصار : « ليس فى امكان المريد الاهتداء الى طريق الحق من غير اقتداء ، فلابد له من دليل عارف يكون له حصنا من الوساوس وغيرها ، فان أخذ الأدب من أصحابه ظهرت له الأسرار الباطنة فى

---

(١) شذرات الذهب لابن العماد ج ٥ ص ١٩٦ .
(٢) رسالة الأمر المحكم المربوط ص ٤ .
(٣) الأمر المحكم ص ٣ .
(٤) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٦٣ .

ألفاظها فتنتفع به الأرواح وتصفو ، أما الذى يقول : ان الشخص تغنيه كتبه عن الشيخ فهو واهم فى قوله ، « لأنه يمكنه أن يرى كشف الحجب ولا يمكنه صرف النفس عن هواها .. » (١)

وشيوخ الصوفية جميعا يوجبون اتخاذ الشيخ ـ وان كان الدكتور على صافى حسين فى كتابه الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى يرى أن بعض الشيوخ ومنهم الشاذلى لا يستوجبون على المريد اتخاذ شيخ له (٢) .

ولكن الواقع أن الشاذلية اعتنوا بهذا الأمر عناية فائقة وأوجبوا على المريد أن يكون له شيخ ، وقد جاء هذا على لسان غير واحد منهم ، ومن هؤلاء ابن عطاء الله السكندرى الذى يقول فى مفتاح الفلاح « وينبغى لمن عزم على الاسترشاد وسلوك طريق الرشاد أن يبحث عن شيخ فاضل من أهل التحقيق سالك للطريق تارك لهواه راسخ القدم فى خدمة مولاه فاذا وجده فليمتثل ما أمر ولينته عما نهى عنه وزجر » ومنهم ابن عجيبة الحسنى الذى يقول فى غير موضع من كتابه : ايقاظ الهمم على شرح الحكم : لا يمكن الخروج من النفس والتخلص من دقائق الرياء من غير شيخ أبدا.

ويحكى الدكتور أبو الوفا التفتازانى حياة ابن عطاء الله السكندرى ـ وهو لسان حال الشاذلية ـ قائلا : « ونخلص من كل ما سبق الى أن ابن عطاء الله السكندرى كان خاضعا فى حياته الصوفية لما يخضع له السالكون من اشراف شيخ مرشد بصير عارف بالطريق الى الله ، ولما يصطنعونه من مجاهدة النفس ومحاربة يرى أن التقلب دليل على عدم الاخلاص فى عبادة الله » (١) .

---

(١) روض القلوب المستطاب ص ٢٨٣ .

(٢) الأدب الصوفى فى مصر فى القرن السابع الهجرى ص ٤٤ .

(٣) ابن عطاء الله وتصوفه ص ٤٤ .

وان كان هنـــــاك من فرق بين رأى « ابن عربى » ورأى « الشاذلى » فهو أن ابن عربى يلح فى « تحريم تغيير الشيخ بل وزيارة غيره بدعوى أن يجد عند هذا الآخر أفضل وأيسر ، اذ هو يرى أن التقلب دليل على عدم الاخلاص فى عبادة الله » (١) .

أما الشاذلى فقد كان متسامحا فى هذه الناحية ، وكثيرا ما كان ينصح بعض المريدين بالتوجه الى غيره من الشيوخ اذا كان فى ذلك نهوض لحالهم (٢) .

ولا يتعارض رأى « ابن عربى » مع سلوكه الخاص فقد عرفنا أنه صاحب كثيرا من الشيوخ قدره بعض المترجمين لحيـــاته بخمسة وخمسين شيخا ، لأنه كان متمكنا من حاله لا يخشى عليه من ذلك التغيير ، ولم يكن اصطحابه لهؤلاء الشيوخ الا طلبا فى الاستزادة من « البركة » التى يحملونها ورغبة فى التعرف الى أحوالهم وتواضعا لهم . أما المريد الذى يقدم له « ابن عربى » هذه النصيحة فهو عرضة للوساوس والأوهام ، يخشى عليه من تقلبه وتردده بين الشيوخ انفراط العزيمة وانحلال العقد وضياع الاخـــلاص .

وضرورة اتخاذ الشـــيخ فى رأى « ابن عربى » وغيره من الصوفية لا تتنافى مع استعمال العقل الذى اعتز به الاســـلام ، فالعقل ضرورى فى النواحى التى أوصى الله ســـبحانه وتعالى باستعماله فيها وذلك مثل التفكر فى خلق الســـموات والأرض واختلاف الليل والنهار للاستدلال من ذلك على قدرة الله تعالى وعظمته واحاطته ، وهذه درجة عظيمة من درجات العبـــادة ، أما استعمال العقل فى الوصول الى ذات الله فمنهى عنه .

---

(١) ابن عربى ص ١٢٨ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة « شاذلى » .

فاذا ما علم ضرورة اتخاذ الشيخ وجب على المريد أن يراعى مع هذا الشيخ آدابا معلومة حتى يمكنه الاستفادة الكاملة من مصاحبته ، ومن هـــذه الآداب فى رأى « ابن عربى » أن يكون بارا بأستاذه وألا يعترض عليه بقلبه أو بلسانه ، وأن يكون بين يديه « كالميت بين يدى الغاسل » وأن يكون مطيعا لكل ما يصدر اليه من الشيخ من تعليمات وأن يقتفى خطواته وأن يحترمه فى غيبته وحضوره وأن يتحبب اليه دائما وأن يؤثره على نفسه (١) .

وليس فى ذلك الغاء لشخصية المريد ولكنه تثبيت لها ؛ لأن الهدف من وراء ذلك تنقية النفس من كافة شهواتها وفى مقدمتها الرغبة فى التسلط والغرور ، ولن يقضى على ذلك الا اذا قلمت أظفارها بالخضوع الكامل الذى يمحق الارادة لمن يستطيع القيام بهذه المهمة الخطيرة ، فهو بذلك يميت نوازع النفس ليحيى معالم الروح ، ويقضى على داء الأثرة ليقيم معانى الايثار ، وليس ذلك غريبا ، فالتواضع رفعة والكبرياء ذل وقد امتدح الله قوما يحبهم ويحبـــونه بأنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، واذا كان الله قد أمرنا بخفض جنـــاح الذل من الرحمة لوالد الجســـد فمن الأولى أن يكون ذلك الخفض لوالد الروح ورسالته أشرف ومهمته أقدس .

وأدب الصوفية مع شيوخهم مستمد من أدب الصحابة مع الرسول صلى الله عليه وسلم الذى يقول الله فى حقه : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شـــجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » (٢) ، ويقول فى حقه : « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم » (٣) وشيوخ الصوفية

---

(١) الأمر المحكم ص ٥ ــ مواقع النجوم ص ١٠٢ .

(٢) النساء ٦٥ .

(٣) الأحزاب ٦

يسيرون على قدم رسولهم الكريم . ويؤدون واجبهم نحو رسالته السامية ، فلا بد أن يتحلى تلاميذهم بالأدب الذى كان يتحلى به الصحابة مع الرسول صلى الله عليه وسلم .

٢ ـ الخلوة :

ويأمر الشيخ مريده بالخلوة اذا رأى فى ذلك ما يصلحه ، وعلى المريد حينذاك ألا يبارحها الا باذن شيخه فى الحدود التى توضحها أصول الطريق ، وهى أن يكون خروجه لأداء جماعة أو قضاء حاجة أو سعى فى ضرورات الرزق .

فاذا ما خرج فعليه أن يكون غاض البصر معلق القلب بالله ذاكرا له بلسانه مغلقا سمعه عن كل ما يؤذيه فى باطنه أو يقطع عليه تأمله وذكره وحضور قلبه وهمته .

وفى الخلوة يمارس ألوانا من الذكر والتسابيح وتلاوة القرآن ، وصيغ الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وقد يطالع بعض الكتب الصوفية والشرعية التى تعينه على وقته .

وتثمر الخلوة فى رأى الشيخ الأكبر وغيره من الصوفية ثمارا عظيما متى روعى فيها أدبها المطلوب وهو لا يخرج عما أشير اليه ، يضاف اليه الاقلال من الطعام وطول السهر وكثرة التأمل .

وهذه الثمار اليانعة للخلوة تظهر فى العفة والطهارة وذلك بسبب البعد عن المغريات ، وفى الزهد لأنه أصبح حالا للقلب بما انطبع فيه من كراهيته للدنيا وتعال على مباذلها ، وفى التجريد الذى يعد قمة أحوال الصوفية وذلك بما يصحب المريد من تفويض كامل وتوكل حقيقى ، ويصل به الى مقام البتول مريم التى « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال : يا مريم ، أنى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله ، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب » .

كما أن من ثمارها التواضع الذى ينشأ عن شهود الافتقار الكامل الى الله ومشاهدة عظمته وقدرته وهيبته ، وكلما اشتدت هيبة المريد لله ازداد انمحاقه والشعور بضعفه وذله ، ومن كلام ذى النون المصرى « من أراد التواضع فليوجه نفسه الى عظمة الله فانها تذوب وتصفو ، ومن نظر الى سلطان الله ذهب سلطان نفسه لأن النفوس كلها فقيرة عند هيبته » وهـــذا المعنى مستمد من قوله تعالى : يأيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد (١) .

ومن ثمار الخلوة الصفاء كما هو ثمرة للتواضع أيضا ، ويفهم ذلك من قول ذى النون السابق . والصفاء هو المقدمة الكبرى لما يأتى بعد ذلك من نتائج قيمة فى الطريق الصوفى ، والصفاء ينتج عن انجلاء مرآة القلب بذهاب ما تراكم عليها من ظلمة وكثافة وبانجلائها تصبح قابلة لمختلف الادراكات الذوقية والكشفية .

وينتج عن الخلوة مدى استعداد المريد لبلوغ المقامات والأحوال المختلفة كالتوكل وما يترتب عليه من تسليم وتفويض ، والمحبـــة وما تستتبعه من شوق ووجد وأنس وقرب ، والمعرفة وما تحققه من فناء وبقاء .

٣ ـ استخدام الوقت :

ويعتنى « ابن عربى » شأنه شأن غيره من الصوفية بتدبير الوقت وحسن استخدامه والمتتبع لكلامه فى كتبه وبخاصة الأنوار ومواقع النجوم يرى كيف يلح على ضرورة استفادة المريد من وقته الذى هو كالسيف ان لم يقطعه المريد بالعمل قطعه الوقت بالمقت .

والوقت لابد أن يكون مقسما بين فعل الخير والعبادة ، ويدخل

(١) فاطر ١٥ .

فى نطاق فعل الخير السعى فى اكتساب الرزق الحلال وفى الاحسان والتصدق وإعانة الغير وعيادة المريض وتشييع الجنائز والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وغير ذلك من أفعال الخير التى لها صلة وثيقة بترقية المجتمع ، ويدخل فى نطاق العبادة كل ما يعود على النفس من تخلية وتصفية وتحلية . فالتخلية بالتوبة ، والتصفية بالرياضة والتحلية بالذكر والتسبيح والتلاوة وما شابه ذلك .

على أن ذلك كله لا يمكن أن يؤتى ثماره المطلوبة مالم يكن تحت ارشاد شيخ ، ويتصل بذلك فى حسن استخدام الوقت محاسبة النفس ومراقبتها ، حتى يقطع الطريق على وساوسها وخطراتها ، والمحاسبة لها أثر كبير فى تهذيب النفس وترقية الوجدان وتحسين السلوك ، وعليها يتوقف نجاح المريد فى الوصول .

ويرى « ابن عربى » أن يقسم المريد ليله ونهاره تقسيما دقيقا ويختص كل ساعة بأعمال صالحة معينة ، وقد فصل ذلك فى كتابه « كنه مالابد للمريد منه » ووضع تخطيطا اجماليا لتوزيع الساعات بما يشغل أوقات الفراغ من تلاوة ومحاسبة وفكر (١) .

وتدبير الوقت له أثر كبير فى تنظيم الحياة لدى الصوفية ، ولذلك نراهم لا يشكون من أوقات الفراغ كما يشكو غيرهم ، ولكنا نراهم كثيرا ما يشكون من ضيق الوقت الذى لا يسعفهم بأداء حقوق الله الواجبة الأداء وشاعرهم يقول فى ذلك : ـ

وزادى قليـــل ما أراه مبلغى ... ألزاد أبكى أم لطول مسافتى

وبمنهج المحاسبة اطمأنوا فى حياتهم ، وفرغوا من القلق النفسى الذى نغص حيـــاة كثير من الأفراد ؛ لأنهم أقاموا من ضمائرهم سلطانا حيا ، يراقب تصرفاتهم وسلوكهم ، ولذلك ارتفعوا بنفوسهم

---

(١) ابن عربى ص ١٥٦ .

عن الأنانية وحب الذات ، كما بعدوا عن مسالك النفاق ومدارج الظهور .

٤ ـ الأخوة :

اعتنى « ابن عربى » بالأخوة فى الله وحياته الطويلة الحافلة قضاها فى صـــحبة اخوان صادقين كان يعتز بأخوتهم ويتغنى بصداقتهم ويسعى فى حاجاتهم ويؤثرهم على نفسه ، وكان يتحدث كثيرا عن الأخوة التى تربطه بغيره ممن اتفق مشربه واتحد هدفه معه . وهو يذكر شيوخه واخوانه فيقول عنهم « وما من واحـد الا وعاشرته معاشرة مودة وامتزاج ومحبة منهم فينا »

و « ابن عربى » يكره التكلف بين الاخوان ، بل يحب أن يتعاملوا فيما بينهم بالانبساط وعدم التكلف ، وله كتاب أشار اليه فى مجلس جماعة من أصدقائه الذين كانوا يحتشمونه اســـمه : « الارشاد فى خرق الأدب المعتاد » وكان يهدف من الاشارة اليه أن ينبسطوا معه فى مجلسه ويكفوا عن التكلف والسكون . وهذه الناحية السلوكية تدل على مدى عنايته بالاخاء فى الطريق الصوفى ، ولذلك نجده ينص عليه كثيرا فى رسائله ومصنفاته ، ويرى أن الأخوة تعين على السفر وتبدد الوهن فى العزم وتقوى الهمة وتبعد الملل .

ويرى « ابن عربى » أن المريد ينبغى أن يكون ايثاره غير قاصر على اخوانه ، بل يجب أن يشمل أفراد المسلمين ، فهذا من صفات الصديقين فعليه أن يبذل ماله بسخاء وأن يخدم الفقير وأن يعين المحتاج وأن « يعين الحمال على رفع حمله وأن يعنى بالمريض ، وأن يهدى الضال ، وينبغى عليه أن يفضل الفقير على الغنى دائما ، وفى ذلك لون من ألوان الشجاعة الأدبية ، ومظهر يدل على قوة الشخصية التى تنأى عن مواطن الرياء والمداهنة .. وعلى الصوفى

أن يسير فى الطرقات مزيلا ما يعترضها من عقبات تقف دون سير الغير من أحجار وأشواك » (١) .

هذه السعة الخلقية التى يراها « ابن عربى » لازمة للمريد وضرورة من ضرورات سلوكه فى مجتمعه غير مفرق بين أفراد هذا المجتمع ، هى التى تحتم على المريد أن يكون سلوكه من باب أولى مع اخوانه غاية فى الايثار والتعاون والصفح والمودة والرعاية .

٥ ـ ما يعين على بلوغ الغاية :

ولم يترك « ابن عربى » التنويه على الأسباب التى من شأنها تبلغ بالمريد الى أعلى درجات الرقى والكمال وهى كثيرة سبق الاشارة الى بعضها ومن بين هذه الأسباب :

(أ) المحاسبة : وهى تعد ركنا أساسيا فى الطريق الصوفى ، وعمادها الشرعى قوله عليه الصلاة والسلام : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا .

وأثرها النفسى قوى لأنها تترك المرء يصاح نفسه أولا بأول، وقد اعتنى الصوفية قديما وحديثا بهذا الأساس ، « وابن عربى » له فى ذلك تجربة عملية فقد صاحب بعض الشيوخ الذين كانوا يحاسبون أنفسهم على ما يقولون ويفعلون ، فزاد هو عليهم محاسبة نفسه على خواطره ، وتلك مرتبة عليا وجديرة بأن تبلغ بصاحبها الى الكمال الخلقى والروحى .

(ب) الدعاء : ويعتنى « ابن عربى » بالدعاء على أنه أحد الأسباب التى يبلغ بها المريد غاية الطريق ، والدعاء يتنوع بين صلاة وذكر وتأمل وتلاوة .

---

(١) ابن عربى ص ١٥٣ .

١ ــ **الصلاة** ، وهى فى اللغة الدعاء ، وتجمع بين الابتهال والتسبيح والمناجاة والتلاوة والصلاة على النبى فى أدائها ، وهى اذ أديت على شريطتها المطلوبة حققت معنى الخشوع والخضوع والانقياد الكامل وحصول الأنس واستحضار الهيبة واصبحت الصلة الحقيقية بين العبد وربه ، وتتنوع الصلاة بين الفرض والنفل ، وهى كلما ازداد المريد اقامة لها ازداد اقبالا على الله وقربا منه ومحبة له .

٢ ــ **الذكر** ، وله أثر نفسى رائع ، فبذكر الله تطمئن القلوب ، وله أثر روحى يظهر من قوله تعالى : أذكرونى أذكركم ، ومن الأثر القدسى : اذا ذكرنى عبدى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير من ملئه .

والذكر يورث الصفاء ويعمر القلب لأنه يقوم بمهمة التصفية والتحلية اللتين تعقبان التخلية ، والتخلية (أى تخلية القلب من آثاره المذمومة) تكون بالاستغفار والتوبة والندم ، فاذا ما طهر القلب وجب شغله وتعميره ، ويتم ذلك بواسطة الرياضة والذكر ، والذكر يورث أنوارا تتمكن فى القلب وتكشف أمامه الحجب .

٣ ــ **التأمل** ، وهو ضرورى للمريد لأنه عبادة الصديقين ، والتأمل في رأى « ابن عربى » لا يكون فى ذات الله ، استنادا الى الأثر الوارد : تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله ، والأثر الوارد : البحث عن الذات اشراك والعجز عن الادراك ادراك . ويورد ابن عربى فى ذلك شعرا : ــ

قل لامرىء رام ادراكا لخالقه
العجز عن درك الادراك ادراك
من دان بالحيرة الغراء فهو فتى
لغاية العلم بالرحمن دراك
وأى شخص أبى الا تحققه
فان غايته جحد واشراك

فالعجز عن درك التحقيق شمس ضحى
جرت بهـــا فوق جو النسك أفلاك

فالتأمل فى رأى « ابن عربى » يجب أن يكون للعظة والاعتبار ولادراك قدرة الله وسعة حيطته وعلمه وأنه فعال لما يريد ، وذلك مطلوب شرعا لقوله تعالى : « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ـ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض : ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك فقنا عذاب النار » (١) .

أما التفكر فى ذات الله فمنهى عنه فى رأى « ابن عربى » بمقتضى الفهم من قوله تعالى « ويحذركم الله نفسه » (٢) أى لا تتفكروا فيها .

وهذه حقيقة اتفق الصوفية وغيرهم عليها ، « فالحارث المحاسبى يقول : أكمل العاقلين من أقر بالعجز أنه لا يبلغ كنه معرفته . وهذه حقيقة لا مراء فيها وهى العجز عن ادراك ذات الخالق ، ومن حـــاول أن يدرك فعجز دون الغاية وأقر بعجزه فهو غاية الادراك ، والعجز كله لكل المخلوقات حتى الملائكة التى تحف بالعرش ، وهى الرقائق النورانية . وقد التقى فى ذلك صوفية المسلمين وفلاسفتهم » (٣) .

وفى الحقيقة ان الاعتراف بالجهل فى هذه الناحية هو عين المعرفة ، لأنه دليل تام على عظمة الله واحاطته وقدرته الخارقة التى لا يحيط بها علم ولا يدركها عقل . نقل صاحب الشذرات عن ابن عربى قوله : « أجمعت الطائفة على أن العـــلم بالله عين الجهل به تعالى » (٤) .

---

(١) آل عمران ١٩٠ ، ١٩١ .

(٢) آل عمران ٢٨ .

(٣) عبد العزيز الأهل ـ منبر الاسلام رجب ٣٨٦ هـ .

(٤) الشذرات ج ٥ ص ١٩٦ .

وقد عبر عن هذا المعنى أحد صوفية العصر الحديث هو السيد محمد على منصور الأقدمى قائلا : ـ

عجزت ـ نعم ـ عن درك سر وجودى
وجهلت حتى صار جهلى شهودى

واجلاء الصحابة الذين كانوا نبراس هدى لنا ورد عنهم ذلك الاقرار بالعجز الذى هو عين الادراك ، فقد سئل أبو بكر الصديق رضى الله عنه : بم عرفت ربك ؟ قال عرفت ربى بربى ، قيل : وكيف عرفته ؟ قال : العجز عن الادراك ادراك .

٤ ـ **التلاوة :** وقد أدرك ابن عربى سرها منذ كان مصاحبا لوالده ورآه مواظبا على تلاوة القرآن الكريم وأدرك منه سر الأثر المشهور « يس لما قرئت له » فقد تلاها عند رأسه وهو مريض فى غيبوبة الحمى ،فرأى أجساما نورانية لطيفة تحيط به وتدفع عنه أذى المرض ، ويروى عنه صاحب كتاب ابن عربى هذه القصة التى وردت فى الفتوحات « مرضت فغشى على فى مرضى بحيث انى كنت معدودا فى الموتى ، فرأيت قوما كريهى المنظر يريدون اذايتى ، ورأيت شخصا جميلا طيب الرائحة شديدا يدافعهم عنى حتى قهرهم ، فقلت له : من أنت ؟ فقال : أنا سورة يس أدفع عنك ، فأفقت من غشيتى تلك ، واذا بأبى رحمه الله عند رأسى يبكى وهو يقرأ سورة يس وقد ختمها فأخبرته بما شهدته » .

وأدرك سر سورة الفاتحة وهى أم الكتاب من فاطمة بنت ابن المثنى القرطبى فقد كانت تتلوها فيتيسر أمامها كل مطلوب ، ويروى « ابن عربى » عنها قولها : انى والله لمتعجبة ، لقد أعطانى حبيبى فاتحة الكتاب تخدمنى فوالله ما شغلتنى عنه » .

ويعلمنا « ابن عربى » كيف كانت تقرأ هذه المرأة الفاتحة

فيقول : — « أنشأت تقرأ فاتحة الكتاب وقرأت معها ، فعلمت مقامها عند قراءة الفاتحة ، وذلك أنها تنشئها بقراءتها صورة مجسـدة هوائية » .

ومن الشيوخ الذين صاحبهم ابن عربى يواظبون على تلاوة القرآن « محمد بن قسوم الأشبيلى » الذى يقول عنه « انه يترنم بالقرآن ويتلذذ به تارة فى حضرة التوحيد وتارة فى الجنة وتارة فى الاعتبار وتارة فى الأحكام بحسب ما تعطيه الآية حتى يصـبح فيخرج من صلاته وقد اطلع على علوم كثيرة فى تلاوته من الله تعالى ، لم تكن عنده فهمه الله تعالى اياها من القرآن » .

وتلاوة القرآن لها حقا ذلك السر العجيب ، وصاحبها من الذين لهم تجارة رابحة « ان الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور » (١) .

وآداب التلاوة عند « ابن عربى » يوضحها بقوله : — « اذا وفقك الله وتريد أن يسمع الحق جل اسمه منك تلاوتك ويرسمك فى ديوان التالين ، فاعلم منازل التلاوة ومواطنها ، وذلك أن تعـلم أن على اللسان تلاوة وعلى الجسم بجميع أعضائه تلاوة وعلى النفس تلاوة وعلى القلب تلاوة وعلى الروح تلاوة . فتلاوة اللسان ترتيل الكتاب على الحد الذى رتب المكلف له ، وتلاوة الجسم المعاملات على تفاصيلها فى الأعضاء وتلاوة النفس التخلق بالأسماء والصفات ، وتلاوة القلب الاخلاص والفكر والتدبر وتلاوة الروح التوحيد » (٢) .

٦ — المقامات والأحوال :

الحال يطلق لغة على الوقت الذى أنت فيه وما عليه الشخص من خير أو شر ويطلق اصطلاحا لدى الصوفية على المعنى الذى يرد على

---

(١) سورة فاطر ٢٩

(٢) مواقع النجوم ص ٨٢ .

القلب بلا تصنع ولا اكتساب ، والمقام يطلق اصطلاحا على « ما يتحقق به العبد من الآداب مما يتوصل اليه بنوع تصرف ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساة تكلف » (١) .

والمقامات هى مراحل الطريق الى الله وفيها تظهر حقائق السالكين والمريدين كل على حسب مقدرته وعزيمته وقوة صبره فى الجهاد .

وعلى هذا فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب .

ويختلف الصوفية فى تحديد المقامات والأحوال على حسب أذواقهم ومشاربهم ، فالغزالى رضى الله عنه يرى أن المقامات هى التوبة والصبر والشكر والرجاء والخوف والفقر والزهد والتوحيد والتوكل والمحبة (٢) .

وابن عطاء الله السكندرى يرى أنها هى التوبة والزهد والصبر والشكر والخوف والرجاء والرضا والتوكل والمحبة (٣) .

والطوسى ـ رضى الله عنه ـ يرى أنها التوبة والورع والزهد والفقر والتوكل والرضا (٤) .

أما ابن عربى فيذكر « أسين بلانيوس » فى كتابه أن أهم المقامات التى يذكرها فى « الفتوحات » هى التوكل والشكر والصبر والرضا والعبودية والاستقامة والاخلاص والصدق والحياء والحرية والغيرة والولاية والرسالة والنبوة والمحبة ، وفى كتابه « تحفة السفرة » و « مواقع النجوم » يذكر بعض المقامات الرئيسية مثل : الاستواء والتسليم والأنس والخوف والرجاء واتحاد الارادة مع ارادة الله (٤) .

---

(١) الرسالة القشيرية .

(٢) الأحياء الجزء الرابع .

(٣) التصوف فى الشعر العربى .

(٤) ابن عربى حياته ومذهبه ص ١٩١ .

ومن هذا ندرك أن ابن عربى بينه وبين غيره من الصوفية موافقة على بعض المقامات كما أنه انفرد عن غيره بذكر بعض المقامات كما انفرد غيره كذلك .

واختلافهم راجع الى تعدد الأذواق وهى قواعد غير ثابتة ولكنها اجتهادية تدرك من واقع ما يكشف لهم من علوم ومعان ، فما يكشف لهذا قد لايكشف لذاك وما يدركه رجل قد لا يدركه رجل آخر .

٧ ــ أسرار العبادات :

وابن عربى فى دعوته الى التمسك بأسباب النجاة ووسائل الكمال وفى مقدمة ذلك المواظبة على العبادات المختلفة لا يغفل عن أسرار هذه العبادات وما تهدف اليه من غايات وتربية للروح وايقاظ للمشاعر .

وهو فى ذلك ينبه على أهمية الشرع وضرورة اتباعه وعدم الغفلة عنه لما يحتوى عليه من دقائق يفطن اليها اليقظ ويغفل عنها الكسول .

والشرع فى رأى « ابن عربى » ليس قشرا والحقيقة لبا كما يرى البعض ، ولكن الشرع فى رأيه شجرة فارعة ثمارها الحقيقة والمعرفة ، وكلما أمعن المريد فى ممارسة الشرع ظهرت له حقائق وتكشفت أمامه أسرار لا يمكن أن يدركها من غير طريقها الأساسى وهو اقامة الشريعة على أصولها .

ولذلك نسمعه ينبه مرارا على أن العلم الحقيقى لا يمكن ادراكه بغير الشرع وتطبيق محكم الكتاب والسنة ــ وقد مر بنا بعض النصوص الواردة فى ذلك ــ ونضيف اليها قوله : ــ « لا يصح لعبد مقام المعرفة بالله وهو يجهل حكما واحدا من شرائع الأنبياء

فمن ادعى المعرفة واستشكل حكما واحدا فى الشريعة المحمدية أو غيرها فهو كاذب » (١) .

ويقول الشعرانى تعليقا على ما فهمه من قول « ابن عربى » فى كتابه الفتوحات حول هذا المعنى « يجب على الولى متابعة العمل بالشريعة المطهرة حتى يفتح الله تعالى له فى قلبه عين الفهم عنه فيلهمه معانى القرآن ويكون من المحدثين » (٢) .

ومما يدل على تعمقه الى باطن الأشياء قوله فى الباب الخامس والعشرين من الفتوحات : « ان معنى « عبرة » فى قوله تعالى « ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » من العبور لا من الاعتبار . ومعنى ذلك لا تقفوا على ظاهر الأمر بل اعبروا من مظاهر تلك الصورة الى باطنها » (٣) .

ولكى ندرك مدى عناية ابن عربى بالتنبيه على أسرار العبادات نستمع اليه وهو ينصح المريد وهو يتأهب للصلاة بقوله : ــ « فاذا توضأت فاسع فى الخروج من الخلاف وتوضأ أسبغ وضوء، وسم الله فى بدء كل حركة ، واغسل يديك بترك الدنيا منهما ، ومضمض بالذكر والتلاوة ، واستنشق بشم الروائح الالهية ، واستبر بالخضوع وترك الكبر ، واغسل وجهك بالحياء ، وذراعيك بالتوكل ، وامسح رأسك بالمذلة والإفتقار والاعتراف ، وامسح أذنيك باستماع القول واتباع أحسنه ، واغسل قدميك لايطاء كثيب المشاهدة ، ثم اثن على الله بما هو أهله ، وصل على رسوله الذى أوضح لك سنن الهدى صلى الله عليه وسلم ، وقف فى مصلاك بين يدى ربك من غير تحديد ولا تشبيه ،

---

(١) شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٩٦ .

(٢) الكبريت الأحمر ص ٢٢ .

(٣) المرجع السابق ص ١٦

وواجهه بقلبك كما تواجه الكعبة بوجهك وتحقق أن ما فى الوجود أحد الا هو وأنت فتخلص ضرورة ، وكبره بالتعظيم ومشاهدة عبوديتك واذا تلوت فكن على حسب الآية المتلوة فان كان ثناء عليه فكن أنت المحدث وهو الذى يتلو كتابه عليك فيعلمك الثناء عليه فيما يثنى به على نفسه ، وكذلك فى آية الأمر والنهى وغير ذلك لتقف عند حدوده وتعرف ما وجه عليك سيدك من الحقوق فتحضرها فى قلبك لأدائها والمحافظة عليها ، والحظ ناصيتك بيده فى ركوعك ورفعك وسجودك وجميع حركاتك فتسقط لك الدعوى فى هذه الملاحظة حتى تسلم ، فاذا سلمت فابق على عقدك أنه ما ثم أحد غيرك وربك سبحانه ، وسلم باللفظ على من أمرك فان سلامك على نفسك » (١) فهو فى هذا النص المنقول من التدبيرات الالهية يدرك السر من التعبد وينبه على ملاحظته عند ممارسة العبادة ٠

يقول فى الباب الثامن والستين من الفتوحات : اشترطت النية فى التيمم ولم تشترط فى الوضوء لأن الماء سر الحياة فهو يعطى الحياة بذاته سواء قصد أو لم يقصد بخلاف التراب لأنه كثيف لا يجرى على العضو ولا يسرى فى وجه القصد فافتقر الى القصد الخاص بخلاف الماء (٢) ٠

وهذا ادراك خاص لسر من أسرار الطهارة بالماء والتيمم ٠

وله فى معنى الاستنشاق فهم رائع يوضحه فى هذا الباب ، « فالاستنشاق بالماء فى الأنف لأن الأنف محل العزة والكبرياء والماء طهارة ، فكان فى ذلك اشارة الى نثر الكبرياء والتبرى منه بالانقياد والخضوع لله (٣) ٠

---

(١) ابن عربى ص ١٦٦ ٠

(٢) الكبريت الأحمر ص ٣٠ ٠

(٣) محاضرة الأبرار ج ١ ص ١٦٣ ٠

ويفهم من الصلاة سر اشتقاقها من « المصلى » وهو الذى يلى السابق فى الحلبة ، والسابق هنا هو التوحيد ، والمصلى هى الصلاة ، ويشهد لذلك حديث : بنى الاسلام على خمس ·

« وابن عربى » يفهم من معنى استلام الحجر الأسود فى أداء فريضة الحج معنى ساميا يقضى بالمبايعة لله ، وهو ينظر الى الأثر الوارد : الحجر يمين الله فى الأرض · وينشد : ـ

من يطع الارسال صدقا فقد — أطاع من أرسلهم والسلام
كمثل من بايع معبوده — وانما بايعه فى الأمام
وقد أتى أوضح من ذا وذا — فى الحجر الأسود بالاستلام
فقل لمن يفهم ما قلته — بعد الذى سمعته : لا كلام

كما يدعو فى أبيات أخرى الى تقبيل الحجر الأسود مشيرا الى مداومة الاتباع ورعى المودة وحفظ الذمام ومنبها على رتبة المعرفة ·

يمين المؤمن الركن اليمانى — أبايعه لأحظى بالأمانى
يمين مالها حجب تعالت — عن الحجاب والحجب المبانى
أمنت بلثمها من كل سوء — يصيرنى الى دار الهوان (١)

وهذه الأسرار التى توصل اليها الصوفية من العبادات هى المفهوم الزائد لهم ، وهى الخاصية الدقيقة التى أطلق عليهم من أجلها : علماء الحقيقة ، ولقد فهم الصوفية ذلك لأنهم تناولوا معنى العبادات بأرواحهم وأقاموها بأركانها وشعائرها الحقيقية المطلوبة وكان الاخلاص رائدهم فى اقامتها ، وذلك هو المطلوب فعلا لقوله تعالى « فاعبد الله مخلصا له الدين » ولقوله « وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء » والاخلاص هو روح العبادة ، وهو سر من أسرار الله يضعه فى قلب من يشاء من عباده . وبالاخلاص استنارت قلوبهم فأدركوا من المعانى مالم يدركه غيرهم ·

---

(١) محاضرة الأبرار ج ١ ص ١٦٣ ·

تعبيرات فى التصوف النظرى :

وفى التصوف النظرى الذى يعد ثمرة الجهاد المتواصل فى الطريق الصوفى ، كما يعد صدى للانفعالات العنيفة التى تتردد فى نفس الصوفى وتمتلىء بها روحه ، ويعد تعبيرا عن المعارف التى يتذوقها أو يكاشف بها ترك « ابن عربى » فى ذلك ثروة ضخمة كان لها أثرها بين الصوفية والفقهاء . وسنعرض لموضوعين من ذلك .

١ ـ الحب :

ويقصد به هنا حب الله جل وعلا ، وهو عند « ابن عربى » حب يسمو على كل شىء ويرتفع بالانسان الى درجة من القداسة تصل به الى أعلى المراتب ، لأنه لابد أن يكون ثمرة لما مر به من جهاد متواصل ، وتحقق به من أرفع آيات الأخلاق والفضائل .

وحب الله تضاربت فيه الأقوال بين الفقهاء والصوفية ، فالفقهاء ينكرونه على أساس أن حب الله لابد أن يتمثل فى طاعته والاقتداء بنبيه مصداقا لقوله تعالى « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » ولا يجوز أن يقع الحب الا بين متماثلين ، ولا مماثلة بين العبد والرب (١) .

ولكن الصوفية يجيزونه على أساس أن القرآن الكريم قد صرح به فى قوله تعالى « والذين آمنوا أشد حبا لله » وقوله « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » وفى الحديث الشريف « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما » .

وليس هنا مظهر لهذا الحب أبلغ من التدله بذكره والتفانى فى عبادته والتعظيم لاسمه والهيام بجماله ، والتعبير عن ذلك بما يشبه

---

(١) الأدب الصوفى فى مصر ص ٩٥ .

الغزل الحسى صونا لهذه العاطفة النبيلة المستكنة فى القلب والشعور .

قال الدكتور زكى مبارك « تكلم الصوفية جميعا فى الحب لأن هذه الحال هى الفيصل بينهم وبين أهل الشريعة الذين يعبدون الله طمعا فى الثواب وخوفا من العقاب ، ولا يستقيم حال المتصوف الا اذا فرغ من دنياه وأخراه فلا يكن له مأرب الا لقاء الحبيب » (١) .

وحب الله غاية نبيلة لدى الصوفى ـ ولدى ابن عربى بصفة خاصة ـ وهو طريق للمعرفة الكاملة عنده ، فهو يرى أن المحبة أشواق واحتراق ، أما المعرفة تمكين وثبات ويعبر عن ذلك بقوله: المحب اذا سكت هلك ، والعارف ان لم يسكت هلك (٢) .

ولأن المحبة طريق المعرفة يفسر هذا البيت الوارد فى ترجمان الأشواق : ـ

عهدى بمثلك عند بانك قاطفا

ثمر الخدود وورد روض أينع

بقوله : ـ « كم شهدت من محب مشتاق بروضك يقطف من ثمار معارف القيومية ، يعنى التخلق بها ، وقد اختلف أصحابنا فى التخلق بصفة القيومية ومذهبى التخلق بها ، وفيما تحمله الوجنات من الحمرة المستفادة من (ورد روض أينع) اشارة الى مقام الحياء الذى نتج عن المراقبة والمشاهدة » (٣) .

---

(١) بين التصوف والأدب ص ٨١ .

(٢) رابعة العدوية ص ١٣٥ .

(٣) ذخائر الأعلاق ص ١٠٤ بتصرف .

وقد تقلب « ابن عربى » فى مقام الحب . واصطلى بناره وله فى ذلك آثار رائعة سبق الاشارة الى بعضها – ولا يفى المقام بالافاضة فيها – وخلص من مقام الحب الى مقام آخر قصرت عنه عزائم الكثيرين وهو مقام المعرفة الذى ظفر فيه عن جدارة بلقب « سلطان العارفين » ومن أهم هذه الآثار : ترجمان الأشواق، الذى يقول فى مقدمة شرحه : –

ليت شعرى هل دورا   أى قلب ملكوا ؟
وفؤادى لو درى   أى شعب سلكوا
أتراهم سلموا   أم تراهم هلكوا ؟
حار أرباب الهوى   فى الهوى وارتبكوا

وهذا تصوير لحيرة العاشق . والحب عند « ابن عربى » ليس كلاما يقال ، أو أشعارا تروى ، ولكنه أخلاق ومدارج ومعارج تسفك فى الصعود اليها الدماء وتطل الأرواح .

ولا يكمل مقام المحب حتى يضفى عليه الحب ثوبا قشيبا من الخير والتسامح ونكران الذات ، وحتى يؤمن بنظرية الشمول الواسعة فى الرحمة والمحبة ، فالخلق جميعا مظهر قدرة المحبوب الأعلى ، وهم على اختلاف مذاهبهم لا يخرجون عن دائرة ارادته ومشيئته فلماذا يكن لهم بغضا أو يحمل لهم ضغنا ؟

وابن عربى صاحب القصيدة المشهورة التى يقول فى آخرها :

أدين بدين الحب أنى توجهت
ركائبه فالحب دينى وايمانى

وهو حريص على الرمزية فى حبه شأنه فى ذلك شأن غيره من الصوفية حرصا على المعانى والأسرار وصونا للقداسة والروحانيات التى أدركها ، ومن ذلك قوله فى ترجمان الأشواق :

سلام على سلمى ومن حل بالحمى
وحـــل لمثاى رقـــة أن يســـــلما

وماذا عليهـــــا أن ترد تحيـــــة
علينا ، ولكن لا احتكام على الدمى

سروا وظلام الليل أرخى ســدوله
فقلت لهـــا : صـــبا غريبا متيما

فأبدت ثنـــــاياها وأومض بارق
فلم أدر من شق الحنــادس منهما

وقالت : أما يكفيه أنى بقلبـــــه
يشاهدنى من كل وقت ، أما وما ؟

والحب عذاب ، ويحلو التذلل فى سبيله ، ويعبر ابن الفارض عن ذلك المعنى بقوله :

تذلل لمن تهوى فليس الهوى سهل
فما اختـــاره مضنى به وله عقل

وعش سالما فالحب راحتـــه عنا
وأوله ســـقم وآخـــره قتـــل

أما ابن عربى فيقول :

اذا حـــل ذكركم خاطرى
فرشت خـــدودى مـــكان التراب

وأقعـــدنى الـــذل فى بابكم
قعود الأســـارى لضرب الرقاب

ومن أجل هذا الحب الخطر الذى لا يهدأ قاب صاحبه ، ولا ينال فى طريقه راحة ، لأنه حب محفوف بالمخاطر ، تعرض « ابن عربى » وغيره من الصوفية للسلق بألسنة حداد ، الى جانب ماكانوا يكابدونه فى نفوسهم من عذاب الوجد ومشقة الصد ، وبعد الشقة وطول المسافة ، وهم لذلك أصبحوا بين نارين : نار الحب ونار العذل . أليس ذلك مما يبعث الرثاء والعطف عليهم والرحمة بهم ؟

٢ ــ الانسان الكامل أو الحقيقة المحمدية :

أول من تحدث فى هذا الأمر الحلاج المتوفى سنة ٣٠٩ هـ ، فهو يقول : « أنوار النبوة من نوره برزت ، وأنوارهم من نوره ظهرت ، وليس فى الأنوار نور أنور وأظهر وأقدم من القدم سوى نور صاحب الكرم ، همته سبقت الهمم وجوده سبق العدم واسمه سبق القلم لأنه كان قبل الأمم » (١) .

وجاء ابن عربى بعد ذلك فجلى هــــذه الفكرة وأوضحها فى مواضع متفرقة من كتبه ، وبين أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو الانسان الكامل ، وفتح الطريق لمن جاءوا بعده من الصوفية الى التعبير عنها تعبيرا يختلف من واحد الى آخر على قدر مفهومه وذوقه وادراكه .

و « ابن عربى » ينظر الى النبى صلى الله عليه وسلم على أنه بشر ، ولكنه لم يكن كغيره من البشر ، فهو انسان كامل منذ مولده ونشأته ، وهو يتقلب من كمال الى كمال ، ولذلك أعطاه الله جوامع الكلم واختصه بها ، كما أعطاه معانى الأسماء وحقائقها ، أما آدم فقد علمه الأسماء فقط .

واذا كان النبى صلى الله عليه وسلم انسانا كاملا فهو قد جمع

---

(١) التصوف فى الشعر العربى ص ٣٤٦ .

الكمال من أقطاره ، في كل قول وفعل وفي كل ما يأتي ويدع ، هو القدوة الكاملة والأسوة الحسنة وهو أكمل نبي وأفضل مبعوث . وقد اختصه الله بمقام الفردية . ولذلك أطلق علية ابن عربي في كتاب فصوص الحكم هذا المنطوق « فص حكمة فردية في كلمة محمدية » .

ويعبر عن حقيقة محمد الكاملة الذي يطلق عليه « الانسان الكامل » في كتابه شجرة الكون بقوله : « ان الله كون الأكوان اقتدارا عليها لا افتقارا اليها ، وكمال حكمته في التكوين وذلك لاظهار شرف الماء والطين ، فانه أوجد ما أوجد ولم يقل في شيء من ذلك : اني جاعل في الأرض خليفة ، وكان وجود الآدمي ، فكانت حكمته في وجود الآدمي لاظهار شرف النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه حكمة الأجساد ولاستخراج كاف الكنزية : كنت كنزا مخفيا لا أعرف . فكان المقصود في الوجود معرفة موجدهم سبحانه ، وكان المخصوص بأتم المعارف قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن معارف الكل كانت تصديقا وايمانا ، ومعرفته صلى الله عليه وسلم مشاهدة وعيانا وبنور معرفته تعرفوا ، وبفضله عليهم اعترفوا ، فاستخرجه من لباب حبة « كن » كزرع أخرج شطأه فآزره بصحابته ، فاستغلظ بقرابته فاستوى على سوقه بصحة ذوقه وقوة توقه وشوقه » (١) .

و « ابن عربي » يؤكد أن النبي صلى الله عليه وسلم أكمل موجود في هذا النوع الانساني ، ولذلك بدء به الأمر وختم ، وكان نبيا وآدم بين الماء والطين ، وليس أدل على ذلك من أنه حين سئل صلى الله عليه وسلم : متى كنت نبيا يا رسول الله ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد ، كما روى عنه : كنت أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث (٢) .

---

(١) شجرة الكون ص ٧ .

(٢) محمد الانسان الكامل ـ مقال للدكتور محمد مصطفى حلمي ـ منبر الاسلام

أما كيف كان أولهم خلقا فقد أشار الى ذلك «ابن عربى» بقوله : « لما قبض الله آدم من قبضة تراب « كن » مسير على ظهره حتى يميز الخبيث من الطيب ، فاستخرج من ظهره من كان من أصحاب اليمين ومن كان من أصحاب الشمال ، ثم اعتصر من شجرة « كن » صفوة عنصرها ، ومخضها حتى بدت زبدتها ، ثم صفاها وألقى عليها من نور هدايته ، حتى ظهر جوهرها ثم غمسها فى بحر الرحمة ، ثم خلق منها نور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم زين بنور الملأ الأعلى حتى أضاء وعلا ، ثم جعل ذلك النور أصلا لكل نور ، فهو أولهم فى المسطور ، وآخرهم فى الظهور » (١) .

ورسم « ابن عربى » الطريق لما جاء بعده ليعبر عن هذه الحقيقة ومن هؤلاء « الجيلى » الذى ألف كتابا أسماه « الانسان الكامل » فى معرفة الأواخر والأوائل . وفيه يقول : ثم انهم (أى الأنبيـاء) متفاوتون فى الكمال منهم الكامل والأكمل ولم يتعين منهم بما تعين به صلى الله عليه وسلم فى هذا الوجود من الكمال الذى قطع له بانفراده فيه ، شهدت له بذلك أخلاقه وأحواله وأفعاله وبعض أقواله ، فهو الانسان الكامل ، والباقون من الأنبياء والأولياء الكمل صلوات الله عليهم ملحقون به لحوق الكامل بالأكمل ، ومنتسبون اليه انتساب الفاضل الى الأفضل ، ولكن مطلق لفظ الانسان الكامل حيث وقع فى مؤلفاتى انما أريد به محمدا صلى الله عليه وسلم تأدبا لمقامه الأعلى ومحله الأكمل الأسنى » (٢) .

ولم يترك « ابن عربى » فرصة للتعبير عن اجلاله لهذا النبى الكريم على ضوء هذه الحقيقة التى أدركها الا وجلى فيهـا ببيانه الصافى ومنطقه الوافى شعرا كان أو نثرا ، ومن ذلك ما نقرؤه له

---

(١) شجرة الكون ص ٦ .

(٢) الانسان الكامل للجيلى ج ٢ ص ٤٤ .

مباهيا بوراثته لذلك الرسول الكامل ومبايعا له ومقارنا بينه وبين موسى عليه السلام ، حيث ان موسى شرف بالكلام فقط ، أما محمد فقد شرف بالاسراء والرؤية والمشاهدة .

ورثت الهاشمى أخـا قريش — بأوضح ما يكون من الدليل
أبايعه على الاسـلام كشفا — وايمـانا لألحق بالرعيـل
أقوم به وعنـه اليه حتى — أبينـه لأبنـاء السـبيل
سرى فى النور حتى كان أدنى — من القوسين فى ظل ظليـل
وشرف بالكلام أخـوه موسى — على كثب وذلك بالمسـيل
وأين العرش من واد بقـاع — كما أين الكليم من الخليل ؟

ابن عربي بين أنصاره وخصومه

عبر « ابن عربى » عن الأسرار التى لاحت له فى أثناء طريقه وعن المعارف التى كوشف بها أو أدركها بذوقه ، ومن ذلك تعبيره عن الحب الالهى وافاضته فيه ، وحديثه عن الحقيقة المحمدية بالصورة التى أوضحها وبين رأيه فيها ، كما عبر عن مقابلاته مع الأنبيـــاء والسابقين والأولياء والمؤمنين ، وعبر عن مشاهـــداته لمختلف الروحانيات التى لا تقع تحت الحس ولا يمكن أن يدركها العقل ، وعبر عن أسرار المقامات والأحوال وما يصحبها من تأثيرات نفسية وروحية ، وتحدث عن الدقائق الخفية التى تنتاب الصوفى فى نهاية طريقه فيرى أشياء تحار فيها الأفهام ويدق فيها الكلام الى غير ذلك .

و « ابن عربى » ترك ثروة سخية من غير شك فى ذلك ، وهذه الثروة عرضت أمام مجاهر النقد القديم والحديث ، وأدلى كل من القدماء والمحدثين برأيه فى قوله ، فمن معجب وناقم ومن مدافع ومهاجم .

ولكن الذى يحمد لابن عربى هو حيدته فى التعبير ــ على حد قول الدكتور زكى مبارك . عنه فى ذلك : انه علم الناس كيف يخوضون فى أخطر الأحاديث ثم يسلمون (١) ، فابن عربى فى

(١) التصوف الاسلامى وأثره فى الأدب والأخلاق ج ١ ص ٢٠٣ .

وتعبيره عن هذه الأسرار كان متمكنا من نفسه ، لم تأخذه الدهشة، ولم يغلب عليه « الشطح » فى كل أحواله ، وكان أمينا فى تعبيره فلم يصور شيئا خارجا على حدود الشريعة وكل كلمة قالهـــا أو كتبها استطاع الصوفية أن يجدوا لها متأولا شرعيا من غير تكلف ينسبونها اليه .

وحدة الوجود :

ولكن برغم ذلك فقد وجد بعض الطاعنين له منافذ ينفذون منها الى الطعن عليه والنيل منه . ومن ذلك الفكرة التى اسندت اليه ، وهى فكرة « وحدة الوجود » فقد أشير اليه على أنه صاحب مذهب فى الوجود وفى الوحدة ، وفى صدور الموجودات عن موجدها ، ويصح أن نوضح المقصود بوحدة الوجود لدى الصوفية .

وحدة الوجود لدى الصوفية ناتجة عن طول تأملهم فى آيات الله وآلائه التى أبدعها فبدا عليها أثر خلقه وانشائه وابداعه ، فنور الله وقدرته وجلاله وجماله يبدو على هذه الآيات كما يبدو تأثير المؤثر فى الأثر ، وقد يقرب من هذا المعنى ما أراده ذوالنون المصرى حين هتف يناجى ربه : ــ « الهى ما أصغيت الى صوت حيوان ولا الى حفيف شجر ولا خرير ماء ولا ترنم طائر ولا تنعم ظل ولا دوى ريح ولا قعقعة رعد الا وجدتها شاهدة بوحدانيتك دالة على أنه ليس كمثلك شىء .. ومثل هذا قول الدكتور زكى مبارك على لون من التجوز :

ومن أنت يا ربى؟ أجبنى فاننى ‏ ‏ ‏ ‏ رأيتك بين الحسن والزهر والماء

وهذا لا يقصد منه حلول أو اتحـــاد أو اندماج بين الخالق والمخلوق . ولكن يقصد منه ظهور قدرة الله وآثاره وعظمتـــه فى العالم بأسره .

وفى كل شىء له آيـــة ‏ ‏ ‏ ‏ تدل على أنه الواحـــد

وهذا المعنى يعبر عنه استاذنا السيد محمد على منصور الأقدمي ـ رضى الله عنه .

وأينما وليت لم أر غيره محيطا ، ولم يدركه عبد هواه

ومعنى يدركه أي يدرك هذه الحقيقة وهى شهود الاحاطة . وعبد الهوى محال أن يدرك مظاهر قدرة الله تعالى المحيطة .

فوحدة الوجود فى رأى الصوفية غيرها فى رأى الغربيين والمستشرقين ، لأن الصوفية يفرقون بين الله والعالم ، ولكنهم يرون أن هذا العالم الظاهر لا وجود له حقا ، وانما الوجود الحق لله تعالى ، فليس هو العالم ولا العالم هو (١) . أما غيرهم فيرون أن الروح والمادة شيء واحد .

وحقيقة هذه الحقيقة عند الصوفية قائمة على المعرفة الحقيقية لله ، فقد قال معروف الكوخى : « اذا انفتحت عين بصيرة العارف نامت عين بصيرة فلا يرى الا الله » وهذا ما يعبر عنه الشيخ حسن رضوان فى كتابه روض القلوب المستطاب : ـ

وكل ما سواه نجم آفل بل فى شهود العارفين باطل

ويعلق على ذلك بقوله : ـ « ان كل ما سوى الله تعالى من الأعيان الظاهرة والماهيات الممكنة علوية أو سفلية باطل فى شهود العارفين من حيث ذاته ، فلا حقيقة له أزلا وأبدا ، وانما الموجود حقيقة كذلك هو ذات الحق تعالى ، وليس لتلك الأعيان والماهيات الظاهرة وجود حقيقى ذاتى لها » .

ويستشهد الشيخ حسن رضوان على بيان هذه الحقيقة واجلائها يقول الجيلى :

---

(١) أعلام التصوف الاسلامى لطه عبد الباقى سرور ج ١ ص ٨٥ .

وما الخلق فى التمثال الا كثلجة ... وأنت بها الماء الذى هو نابع
وما الثلج فى تحقيقنا غير مائه ... وغير أن فى حكم دعته الشرائع
ولكن بذوب الثلج يرفع حكمه ... ويوضع حكم الماء والأمر واقع
تجمعت الأضداد فى واحدا لبها ... وفيه تلاشت وهو عنهن ساطع

فمثل رضى الله عنه العالم بالثلج ، والحق تعالى ـ ولِهِ المثل الأعلى ـ بالماء ، وليس الا الماء فى الحقيقة والثلجية طارئة عليه .

فليس الا الله والمظـاهر ... لجملة الأسماء وهو الظاهر (١)

وهذه المعانى مستفادة من بعض الآثار « كان الله ولا شىء معه وهو الآن ما عليه كان » ويوضح هذا المعنى استشهاد الامام الرندي فى شرحه لحكم ابن عطاء الله السكندرى بقول القائل : ـ

الله قل ، وذر الوجود وما حوى ... ان كنت مرتادا لنيل كمـــال
فالـكل دون الله ان حققتـــــه ... عدمٌ على التفصيل والاجمـــال
واعلم بأنك والعوالم كلهـــــا ... لولاه فى محو وفى اضمحلال
من لا وجـــود لذاته فى ذاته ... فوجوده لولاه عـين محـــال
فالعارفون فنوا بأن لم يشهدوا ... شيئا سـوى المتكبر المتعالى
ورأوا سواه على الحقيقة هالكا ... فى الحال والماضى والاستقبال

وذلك عند شرحه لهذه الحكمة العطائية : « مما يدلك على وجود قهره ـ سبحانه ـ أن حجبك عنه بما ليس بموجود معه » (٢) .

ويفصل ابن عجيبة هذا الأمر تفصيلا عجيبا حيث يقول : ـ « قال بعضهم : ما رأيت شيئا الا ورأيت الله فيه ولم أره حديثا ،

---

(١) روض القلوب المستطاب ص ٦ .

(٢) شرح الرندى على حكم ابن عطاءالله ج ١ ص ١٩ .

وانما هو من قول بعض العارفين: فأهل السير من المريدين يشهدون الكون ثم يشهدون المكون عنده وبأثره ، فيمتحق الكون من نظرهم اليه ، وهذا حال المستشرق ، وأهل مقام الفناء يشهدون الحق قبل وجود الخلق ، بمعنى أنهم لا يرون الخلق أصلا ، اذ لا ثبوت له عندهم ؛ لأنهم لسكرتهم غائبون عن الواسطة فانون عن الحكمة غرقى في بحار الأنوار ، مطموس عليهم الآثار ، وفى هذا المقام قال بعضهم : ما رأيت شيئا الا ورأيت الله قبله ، وأهل الحجاب من أهل الدليل والبرهان انما يشهدون الكون ولا يشهدون المكون لا قبله ولا بعده ، وانما يستدلون على وجوده بوجود الكون ، وهذا لعامة المسلمين من أهل اليمين ، فقد أعوزهم وجود الأنوار وحجبت عنهم شموس المعارف بسحب الآثار ، ثم يستشهد ابن عجيبة بقول القائل :

لقد ظهرت فلا تخفى على أحـــــــد

الا عــــلى أكمه لا يبصر القمـــرا

لـــــكن بطنت بما أظهرت محتجبا

وكيف يعرف من بالعزة استترا ؟ (١)

وقد أكثر الصوفية فى التعبير عن هذه الحقيقة حتى أوهم هذا الاكثار فكرة الخلط بين القديم والحديث ، ولكن حاشا للصوفية — وهم أعرف الناس بالله — أن يقصدوا ذلك ، وهم يستأنسون بقول على كرم الله وجهه « الحق تعالى ليس من شيء ولا فى شيء ولا فوق شيء ولا تحت شيء ؛ اذ لو كان من شيء لكان مخلوقا ولو كان فوق شيء لكان محمولا ، ولو كان فى شيء لكان محصورا ، ولو كان تحت شيء لكان مقهورا » .

وكل ما يؤكده الصوفية هو هذا المعنى المستفاد من الأثر : كان

---

(١) ايقاظ الهمم ص ٥١ .

الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان ، فليس الكون فى نظرهم كما يعتقد الغربيون شيئا واحدا لا فرق بين قديم وحديث على نحو ما فهم المستشرق « نيكلسون » فى كتابه الصوفية والاسلام ، ودعواه بأن الصوفية انتهوا الى أن العالم جميعه وفيه الانسان واحد مع الله بالضرورة (١) .

وقد سبق الاشارة الى كثير من مأثورات الصوفية التى تؤكد فهمهم حول هذه الحقيقة بما لا يتنافى مع قدرة الله وديموميته واحاطته وفرديته . ويؤكد الدكتور « عبد الوهاب عزام » ضرورة مراعاة الفرق بين فهم الصوفية وغيرهم لحقيقة وحدة الوجود بقوله : - « ينبغى أن يفرق بين وحدة الوجود التى رآها بعض فلاسفة اليونان ووحدة الوجود فى رأى العطار وغيره من الصوفية ، فالفلاسفة يرون أن الروح والمادة شيء واحد ، والصوفية يفرقون بين الله والعالم ، ولكن يرون أن هذا العالم الظاهر لا وجود له حقا ، وانما الوجود لله تعالى فليس هو العالم ولا العالم هو » (٢) .

وعلى هذا الفهم يمكن أن يفسر كلام « ابن عربى » الذى يفهم منه فكرة وحدة الوجود . وهذا الكلام هو الذى أشار اليه الدكتور أبو العلا عفيفى فى دائرة المعارف الاسلامية بقوله : ويتلخص مذهبه (وحدة الوجود) فى عبارته القصيرة الواردة فى الفتوحات جـ ٢ ص ٦٠٤ وهى « سبحان من خلق الأشياء وهو عينها » وفى البيتين الآتيين الواردين فى الفصوص اشارة الى هذا المعنى : -

يا خالق الأشياء فى نفسه أنت لما تخلقه جامع
تخلق ما لا ينتهى كونه فيك فأنت الضيق الواسع

---

(١) التصوف عند المستشرقين ص ٢٩ .

(٢) أعلام التصوف الاسلامى جـ ١ ص ٨٥ .

فابن عربى فيما ورد على لسانه من عبارات توهم فى ظاهرها فكرة الوحـــدة بين الخالق والمخلوق لا ينبغى أن تفهم الا على أساس فهم الصوفية من هذه الوحدة ، وهو الذى أشير اليه فيما سبق • وقصدوا منه أنه لا موجود على الحقيقة الا الله تعالى ، وليس معنى ذلك أن الله هو العالم أو العالم هو الله •

سلامة عقيدة ابن عربى :

وليس فى عقيدة ابن عربى تغيير لعقيدة التوحيد الاسلامى ، وليس من السهل الحكم على رجل كابن عربى بأن يغير عقيدة التوحيد الاسلامى ، وهى لا اله الا الله ، وهو الذى كان يعظم الشريعة أيما تعظيم ولكنه يقرر : ــ « أن الحق ثابت فى ألوهيته قبل اثبات المثبت ، ومن كان ثابتا لا يحتاج الى اثباتك ؛ اذ ما ثم من تثبت ألوهيته من الخلق حتى ينفى، وانما تعبد المؤمن بذلك على سبيل التلاوة ليؤجره الله على ذلك » وهذا ذوق عال فى الفهم •

وأما قوله : « لا موجود الا الله » فمعناه : أنه لا موجود قائم بنفسه الا هو تعالى ، وما سواه قائم بغيره ، كما أشار اليه حديث : ألا كل شىء ما خلا الله باطل ، ومن كانت حقيقته كذلك فهو الى العدم أقرب ؛ اذ هو وجود مسبوق بعدم ، وفى حال وجوده متردد بين وجود وعدم ، لا تخلص لأحد الطرفين ، فان صح أن الشيخ ابن عربى قال : لا موجود الا الله فانما قال ذلك عندما تلاشت عنده الكائنات حين شهوده الحق تعالى بقلبه ، كما قال أبو القاسم الجنيد : من شهد الحق لم يرد الخلق •

وأما قوله مما يفهم منه أنه جعل الحق والخلق شـــيئا واحدا مثل : ــ

فيحمـدنى وأحمـــده ويعبـــدنى وأعبـــده

فان معنى يحمدنى يشكرنى اذا أطعته كما فى قوله تعالى : أذكرونى

أذكركم ، ويعبدنى معناها يطيعنى ، باجابته دعائى ، كما قال تعالى: لا تعبدوا الشيطان أى لا تطيعوه .

واذا كان قد ورد فى الفتوحات العبارة التى وردت سابقا مما يفهم منها الوحدة بين الحق والخلق ، وهى : سبحان من خلق الأشياء وهو عينها ، فقد ورد فى كثير من المواضع مايدل صراحة على أن العالم ما هو عين الحق تعالى ولا الحق عين العالم ، ويستدل « ابن عربى » على ذلك بدليل عقلى ، وهو أنه لو كان عين الحق لما صح أن يكون الله سبحانه بديعا (١) .

وقد مر بنا فى المحادثة التى تمت بينه وبين هارون النبى عليه الصلاة والسلام ما يشير الى حقيقة رأيه وفى أنه لم يقصد هـــذا الاندماج بين الحق والخلق .

ولقد أفرد الشعرانى فى كتابه اليواقيت والجواهر مبحثا خاصا ينفى فيه عن الشيخ الأكبر ما ألصقه به خصومه من دعوى الحلول والاتحاد مستشهدا على براءته بكلامه هو فى الفتوحات وغيرها .

وكل ما ورد عنه من ألفاظ موهمة وجدت لدى ذائقى كلامه وفاهمى اشاراته متأولا صحيحا ، ومن ذلك ما يرويه المقـرى فى نفح الطيب عن محيى الدين بن عربى : « قال رحمه الله تعالى قال لى بعض اخوانى لما سمع هذا البيت : ــ

يا مـــن يرانى ولا أراه — كم ذا أراه ولا يرانى

كيف تقول : انه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك ؟

فقلت له مرتجلا :

يا من يرانى مجـرما — ولا أراه آخــذا
كم ذا أراه منعمـــا — ولا يرانى لائــذا

---

(١) اليواقيت والجواهر ص ١٥ بتصرف .

ويعقب المقرى على ذلك قائلا : « من هذا وشبهه تعلم أن كلام الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ مؤول وأنه لا يقصد ظاهره ، وانما له محامل تليق به ، وكفاك شاهدا هذه الجزئية الواحدة فأحسن الظن به ولا تنتقد بل اعتقد ، وللناس فى هذا المعنى كلام كثير ، والتسليم أحسن والله سبحانه بكلام أوليائه أعلم » (١) .

ومما يحكيه المقرى عن اليافعى قوله دفاعا عن ابن عربى : « وما ينسب الى المشايخ له محامل : الأول أنه لم تصح نسبته اليهم ، الثانى بعد الصحة يلتمس له تأويل موافق ، فان لم يوجد له تأويل فى الظاهر فله تأويل فى الباطن لم نعلمه ، وانما يعلمه العارفون ، الثالث أن يكون ذلك صدر منهم فى حال السكر والغيبة ، والسكران سكرا مباحا غير مؤاخذ ولا مكلف (٢) .

هذا وابن عربى دائما يؤكد أن تحصيل المعرفة لا يتم الا عن طريق التقوى وسلامة العقيدة وقوة الايمان وحسن العمل .

الحملات التى وجهت ضده :

وقد تعرض « ابن عربى » لحملة قاسية فى حياته وبعد مماته ، بناء على ما ورد فى كتبه المنظومة والمنثورة من عبارات ، وقف عندها البعض ولم يستطيعوا استساغتها ، وقد مر بنا كيف أنه اتهم فى أثناء زيارته لمصر بالزندقة ، وقبض عليه ، وأوشك أن يلقى حتفه لولا أن قيض الله له من شفع له وتأول كلامه .

وقد عرضت كتب التراجم لكثير من الأسباب التى تذرع بها خصوم « ابن عربى » ومن بينها القول بوحدة الوجود التى أشير اليها .

---

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ١١٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٥٨ .

كما عرضت أسماء خصومه وأسماء أنصاره .

وقد ذكرت دائرة المعارف الاسلامية بعض الأسماء من هؤلاء وهؤلاء . فذكرت من المعارضين : ابن الخياط والحافظ الذهبى وابن تيمية وابن اياس والتفتازانى ، وعلى القـــارى ، والامام جمال الدين بن محمد بن نور الدين .

وذكرت من المناصرين : مجد الدين الفيروزابادى صـــاحب القاموس ، وسراج الدين المخزومى ، وكمال الدين الزملكانى ، وقطب الدين الحموى ، وصلاح الدين الصفدى ، وشهاب الدين عمر السهروردى ومؤيد الدين الخجندى ، وكمال الدين الكاش ، وفخر الدين الرازى ، ومحمد المغربى أستاذ الجلال السيوطى ، وبدر الدين بن جماعة ، وسراج الدين البلقينى ، وتقى الدين السبكى ، والجلال السيوطى ، وابن كمال باشا ، وعبد الرازق القاشانى وغيرهم .

وهى قائمة جديرة ببيان منزلة هذا الرجل الذى أجبر هؤلاء جميعا — وغيرهم — على أن يكتبوا عنه مهاجمين أو مدافعين .

بعض الأسباب التى أدت الى الانكار عليه :

أما الأسباب التى تذرع بها خصومه ، فمن بينها القول بوحدة الوجود ، وقد سبق الحديث عن ذلك .

ومن بينها قوله « بايمان فرعون » وهذا القول غير ثابت وروده عن « ابن عربى » فقد تحقق كثير من العلماء بأنه قد دس عليه كثير من الآراء فى كتبه . ذكر ذلك الشعرانى فى اليواقيت والجواهر ، وقرر بأنه ذكر فى الباب الثانى والستين من الفتوحات بأن فرعون من أهل النار الذين لا يخرجون منها أبد الأبدين ، والفتوحات من أواخر مؤلفاته .

على أنه اذا ثبت ذلك فى وروده عنه فانه لم ينفرد وحده بهذا

الرأى ، فقد ذهب بعض السلف الى قبول ايمانه لما حكى عنه الله أنه قال : آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وانا من المسلمين . وكان هذا آخر عهده بالدنيا ، وقال أبو بكر الباقلانى قبول ايمانه هو الأقوى من حيث الاستدلال ، ولم يرد لنا نص صريح أنه مات على كفره ودليل جمهور السلف والخلف على أنه آمن عند اليأس ، وايمان أهل اليأس لا يقبل (١) .

وابن عربى فى اجتهاده — على فرض ثبوت ذلك عنه — لا يؤدى الى هذه الضجة التى أثيرت حوله وأخرجه أصحابها من دائرة أهل الايمان الى دائرة أهل الكفر ، ولعمرى للفتوى بايمان فرعون أيسر من الفتوى بكفر رجل من أهل اليقين والايمان .

وقد أورد صاحب نفح الطيب أن بعض العلماء تأول اقول الشيخ محيى الدين بايمان فرعون أن مراده بفرعون : النفس ، بدليل قوله :

قلبى قطبى ، وقالبى أجفانى
سرى خضرى ، وعينه عرفانى

روحى هارون ، وكليمى موسى
نفسى فرعون ، والهوى هامانى (٢)

وعلى ذلك فيحمل كلامه على محمل الاشارات الصوفية التى يدق فهمها على كثير من العقول .

ومن الأسباب التى هوجم من أجلها ما كان يحدث به من لقاء بينه وبين أرواح بعض الأنبياء والأولياء السابقين على نحو ما سبق الاشارة اليه ، وتلك حالة خاصة لبعض الذين اصطفاهم الله من عباده ، وقد ورد فى بعض الآثار أن الأرواح جنود مجندة فما تعارف

---

(١) اليواقيت والجواهر ص ٦٦ .

(٢) نفح الطيب ج ٧ ص ١١٦ .

منها ائتلف وما تناكر منها اختلف . وليس هناك تعارف أعظم من الاجتماع على معرفة الله ، فتلك هى الألفة التى تربط بين الأرواح العارفة برباط المعرفة المتين ، وليس ما يمنع لقاء هذه الأرواح التى لا يقف أمامها حجاب ولا يحول دون لقائها حس .

كما أن من الأسباب التى أدت الى ذلك ما كان يفيض به من تعبيرات الشوق والهيام فى قصائد غزلية يظنها السامع أو القارىء موجهة الى انسان ، ولكنها فى الحقيقة موجهة الى معان روحية عميقة ، واستعمل فيها الألفاظ الحسية جريا على طريقة الصوفية فى رموزهم واشاراتهم . وهو ليس وحده الذى استعمل الرموز فى التعبير عن روحانياته ، ولكن كثيرا منهم لجأ الى ذلك لسببين فى رأى الأستاذ عبد الحكيم حسان : أحدهما : أن كثيرا من نزعاتهم يخالف ظاهر الشريعة فلا يمكن الافصاح عنها خوفا من سلطان الفقهاء الذين كانوا يتبعون الصوفية بالنكير والتشهير ، ويحاولون الزج بهم فى محاكمات تنتهى فى بعض الأحيان بقتلهم ، والآخر أن اللغة العادية تقصر عن أداء كل ما عندهم من معان ، لأنها تقوم على الذوق أكثر مما تقوم على المنطق ، ويعبرون عن ذلك بقولهم :

وان قميصا خيط من نسج تسعة
وعشرين حرفا عن معاليك يقصر

فلم يجد الصوفية — اذن — وسيلة يمكن التعبير بها عن معانيهم وأذواقهم الا الرمز الذى لم يجر على قاعدة واحدة سار عليها الصوفية ، وانما اختلف باختلاف الموضوعات التى تناولوها (١) .

يقول الدكتور محمد مصطفى حلمى : « ومن هنا ذهب فريق من

---

(١) التصوف فى الشعر العربى ص ٨٧ .

المتعصبين على التصوف والصوفية تعصبا قوامه سوء النية أو نقص الفطرة أو العجز عن فهم الحقائق الدقيقة ، والمعانى الرقيقة الى الارجاف بالصوفية والتشنيع عليهم ، والغض من القيم الروحية والمعانى الخفية التى تنطوى عليها الألفاظ والعبارات الغزلية والخمرية ، وأما أن هذه الألفاظ رموز واشارات فذلك ما لا تفهمه عقول المتعصبين .. ومن هذا القبيل ما وقع فى حق محيى الدين ابن عربى ، اذ ثار به وشنع عليه كل من العامة ورجال الدين عندما وقفوا على ما نظمه من شعر فى حبه الالهى .. (١) »

ومن الأسباب التى أدت الى مهاجمته ما كان يحدث به تجليات واشراقات كانت تحدث له ، لا يجد لها الناس علة عقلية ممكنة ومن ذلك ما حدث به فى أثناء وجوده بمصر . وليس الغريب أن تثير أمثال هذه الاشراقات والتجليات ثائرة الذين لم يشاهدوا ما شاهد « ابن عربى » وأمثاله ممن ساروا على هذا الدرب الشاق المضىء .

ولقد كان الشيخ الأكبر يتوقع ذلك فقد قال : « ولقد وقع لنا وللعارفين أمور ومحن بواسطة اظهارنا المعارف والأسرار ، وشهدوا فينا بالزندقة وآذونا أشد الأذى ، وصرنا كرسول كذبه قومه وما آمن معه الا قليل (٢) » .

والشعرانى أحد الذين وقفوا فى صف « ابن عربى » ووصفه بأنه من أكابر أهل العطايا الذين كشف لهم الحق عن جمال وجهه الباقى فتلألأت سبحاته بالأنوار الساطعة الى يوم التلاق ، وحكم على من تعرض لتخطئته أو تكفيره بالجهل والحرمان وعدم الفهم وضعف الايمان (٣) .

---

(١) الحب الالهى فى التصوف الاسلامى الدكتور محمد مصطفى حلمى ص ١٠ .

(٢) اليواقيت والجواهر ص ٣١ .

(٣) المرجع السابق ص ١٥ .

والخوارق التى تظهر للأولياء انما هى اكرامات الله لهم أفاضها عليهم تقوية لعزائمهم ، وحثا لهم على الجهاد وتأنيسا لهم فى مضيهم نحو غايتهم ، وما يحدث لهم من اشراق على بعض الأجسام المادية انما هو أثر من آثار تجلى الجمال الالهى الذى يحيل الظلام نورا والحس معنى والمادة روحا ، وما ذلك الا صدى لقول الحكيم العزيز « وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .

ولقد كان لنا أخ ادخره الله عنده ، حدثنا مرة أنه مرت عليه أوقات كان يرى فيها كل شىء أمامه نورا خالصا لا حدود له ، حتى الأجسام والحواجز والأشجار كانت فى نظره كوائن نورانية خالصة ، لذلك كان يتردد فى أن يطلق عليها أسماءها العرفية لأنها لم تعد تنطبق عليها كما يراها فى هذه الآونة . ولقد قضى هذا الأخ الى جوار ربه راضيا مرضيا .

ولو تأملنا معنى قوله تعـالى « الله نور السموات والأرض » لرأينا مصداق ذلك فسبحان من أشرق الوجود بنوره وعم العالم ضياؤه ، وقد ابتهل النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة .

ولعل الرافعى يقصد هذه المعانى بتعبيره : « فان الكون كله جوهر واحد هو النور ، حتى الجبل هو نور صخرى ، وحتى البحر هو نور مائى ، وحتى الحديد والذهب والتراب كل ذلك نور صرفته القدرة الالهية تصريفها المعجز ، فكان على ما نرى ، ظاهر مخيل يلائم نقصنا وعجزنا ، وحقيقة قادرة على غير ما نرى » (١) ..

على أنه لا يمكن أن نبرىء بعض خصوم « ابن عربى » من شهوة الحقد التى يبتلى الله بها بعض الناس فينكرون على الناجحين أحوالهم ، ويترصدون لهم الطرق ، ويبثون أمامهم الفتن ويزرعون

---

(١) وحى القلم ج ٢ ص ٢١٥ .

الشوك ، ويدسون عليهم ماهم منه براء . محاولين بذلك الحط من قدرهم والاضعاف من شأنهم ، وتلك حالة عامة تكاد توجد فى كل عصر ومكان .

قال المناوى : « وفريق قصد بالانكار عليه وعلى أتباعه الانتصار لحظ نفسه لكونه وجد قرنيه (ومعاصره) يعتقـده وينتصر له ، فحملته حمية الجاهلية على معاكسته ، فبالغ فى خذلانه وخذلان اتباعه ومعتقديه ، وقد شوهد عود الخذلان والخمول على هذا الفريق وعدم الانتفاع بعلومهم وتصانيفهم على حسنها » (١) .

ولو تتبعنا سير القادة والعظماء والمصلحين فى كل زمان ومكان لوجدنا صحة انطباق هذه القاعدة التى تكاد لا تتخلف ، ويستشهد الشعرانى فى طبقاته وفى غيرها من الكتب على صدق ذلك ببعض الحوادث التى وقعت للصالحين والنابهين ، ويضرب المثل بما لاقاه الأئمة المجتهدين من أمثال أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل . وبما لاقاه ذو النون والسلمى وابن خلكان والبسطامى والتسترى والجنيد والشاذلى والعز بن عبد السلام وغيرهم .

وليس بغريب ، فهذه المحن هى التى تصهر الرجال وتصنعهم ، وقد صدق جل وعز ، اذ يقول « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ، أتصبرون ؟ » وجاء فى التوراة : ما كان رجل حليم فى قوم قط الا بغوا عليه وحسدوه (٢) .

رجوع بعض المنكرين عليه عن انكارهم :

ولو استنطقنا كتب « ابن عربى » الزاخرة لشهدت له بكل فضل ، واثنت عليه الثناء الأوفى ، وآثاره شاهدة بفضله ناطقة

---

(١) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩١ .

(٢) راجع اليواقيت والجواهر ص ١٦ ما بعدها .

بذكره الى جانب ما فاضت به ألسنة المعاصرين له من المنصفين ومن ساروا على نهجه وانتفعوا بعلومه وأدبه .

وقد شهد له كثير من هؤلاء بالتقدم والمعرفة التى كان من حقه علينا أن نثبت طرفا منها ، كما رجع من الحط عليه بعض من أنكروا عليه أولا .

ومن هؤلاء « الحافظ الذهبى » وهو أبو عبد الله شمس الدين الذهبى الحافظ ، محدث وقته ولد سنة ٦٧٣ هـ وتوفى سنة ٧٤٨ هـ بدمشق . فقد شهد «لابن عربى » وقال فى حقه : « ان له توسعا فى الكلام وذكاء وقوة خاطر وحافظة وتدقيقا فى التصوف وتواليف جمة فى العرفان ، ولولا شطحة فى كلامه وشعره لم يكن به بأس ، ولعل ذلك وقع منه فى حال سكره وغيبته فيرجى له الخير » (١) وقال ايضا : « ما اظن المحيى يتعمد الكذب أصلا » (٢) .

ومنهم العز بن عبد السلام شيخ الاسلام والمسلمين ، واحد اعلام الأئمة المشهورين ولد سنة ٥٧٨ وكان حسن المحاضرة لطيف الدرس وتوفى سنة ٦٦٠ هـ ، وكان ينكر على ابن عربى فى أول أمره ، فلما عرف مقامه وشهد له ورجع عن انكاره ، وقرر : أن محيى الدين قطب زمانه (٣) .

شهادة المحققين له :

ومن المعجبين بابن عربى الفيروزابادى صاحب القاموس المحيط ، وهو شيخ الاسلام قاضى القضاة مجد الدين محمد ابن يعقوب بن محمد الشيرازى الفيروزابادى ولد سنة ٧٢٩ هـ

---

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ١٠١ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤٦ .

(٣) المرجع السابق ص ١٤٣ .

وتوفى سنة ٨١٧ هـ ، وكان عظيم الاعتقاد فى « ابن عربى » يحمل كلامه على خير محامله ، وطرز شرحه للبخارى بكثير من كلامه ، وألف كتابا للرد على « ابن الخياط » أحد خصوم ابن عربى سماه : الاغتباط بمعالجة ابن الخياط ، وقال عن ابن عربى « انه شيخ الطريقة حالا وعلما ، وامام الحقيقة حدا ورسما ومحيى رسوم المعارف فعلا واسما :

اذا تغلغل فكر المرء فى طرف   من بحره غرقت فيه خواطره

وهو عباب لا تكدره الدلاء ، وسحاب لا تتقاصر عنه الأنواء ، وكانت دعواته تخترق السبع الطباق ، وتفترق بركاته فتملأ الآفاق (١) .

وتحركت همة « الفيروزابادى » فى الدفاع عن «ابن عربى» حين وجد الجدال قد ثار حوله بسبب « جمال الدين بن الخياط » اليمنى ، وكان قد كتب مسائل فى درج ، وأرسلها الى العلماء ببلاد الاسلام ، وقال : هذه عقائد الشيخ محيى الدين بن العربى ، ذكر فيها عقائد زائفة ومسائل خارقة لاجماع المسلمين ، مما أثار ثائرة بعض العلماء الذين بادروا من غير تثبيت الى الطعن فى ابن عربى(٢) . فدعا ذلك المنصفين ومنهم « الفيروزابادى » الى التصدى لبيان الحق واظهار وجه الصواب ، وتبرئة الشيخ الأكبر مما ألصقه به هؤلاء .

وممن ذكر « ابن عربى » بالخير الامام العالم بالله تعالى « صفى الدين حسين بن جمال الدين الأزدى الأنصارى » فى رسالته الفريدة المحتوية على من رأى من سادات عصره قال : « ورأيت بدمشق الشيخ الامام العارف الوحيد محيى الدين بن العربى ، وكان من أكبر علماء الطريق ، جمع بين سائر العلوم الكسبية ،

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٨ .

(٢) اليواقيت والجواهر ص ٩ .

وما وقر له من العلوم الوهبية ومنزلته شهيرة وتصانيفه كثيرة ، وكان غاب عليه التوحيد علما وخلقا وحالا ، لا يكترث بالوجود مقبلا كان أو معرضا » (١) .

كما ذكره بقوله « هو الشيخ الامام المحقق رأس أجلاء العارفين والمحققين » (٢) .

وقال عنه الشيخ « محيى الدين محمد بن مسدى » فى معجمه البديع المحتوى على ثلاثة مجلدات انه : « خاض بحار تلك العبارات، وتحقق بمحيا تلك الاشارات ، وتصانيفه تشهد له عند أولى البصر بالتقدم والاقدام ومواقف النهايات فى مزالق الأقدام ، ولهذا ما ارتبت فى أمره » (٣) .

ويدفع عنه « ابن العماد » بقوله : « وقع له فى تضاعيف كتبه كلمات كثيرة أشكلت ظواهرها ، وكانت سببا لاعراض كثيرين ممن لم يحسنوا الظن به ، ولم يقولوا كما قال غيرهم من الجهابذة المحققين والعلماء العاملين والأئمة الوارثين : ان ما أوهمته تلك الظواهر ليس هو المراد ، وانما المراد أمور اصطلح عليها متأخرو أهل الطريق غيرة عليها حتى لا يدعيها الكذابون ، فاصطلحوا على الكناية عنها بتلك الألفاظ الموهمة خلاف المراد غير مبالين بذلك لأنه لا يمكن التعبير عنها بغيرها » .

ويروى الشيخ « برهان الدين البقاعى » فى معجمه : « حكى لى الشيخ تقى الدين أبو بكر بن أبى الوفا المقدسى الشافعى قال : « وهو (أى ابن عربى) أمثل الصوفية فى زماننا » (٤) .

---

(١) نفح الطيب جـ ٧ ص ١١٣ .

(٢) دائرة معارف البستانى جـ ١ مادة ابن عربى .

(٣) نفح الطيب جـ ٧ ص ١٥٩ .

(٤) شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٩٠ وما بعدها .

ويعلل الشيخ « زين الدين الخافى » عبـــارات « ابن عربى » الموهمة بقوله : « ان العبد اذا تخلق ثم تحقق ثم جذب اضمحلت ذاته وذهبت صفاته وتخلص من السوى ، فعند ذلك تلوح له بروق الحق بالحق فيطلع على كل شىء ويرى الله عند كل شىء فيغيب بالله عن كل شىء » (١) .

وقال المناوى « والذى اعتقـــده ولا يصح غيره أن الامام « ابن عربى » ولى صالح وعالم ناصح ، وانما فوق اليه سهام الملامة من لم يفهم كلامه . على أنه دست فى كتبه مقالات قدره يجل عنهـــا » .

وفى رسالة « لابن كمال باشا » وجهها فى توضيح مناقب « ابن عربى » جاء فيها : « انه مجتهد كامل ومرشد فاضل ، له مناقب عجيبة وخوارق غريبة وتلامذة كثيرة مقبولة عند العلماء والفضلاء ، فمن أنكره فقد أخطأ ، وان أصر فى انكاره فقد ضل يجب على السلطان تأديبه » .

وتذكر دائرة معارف البستانى عنه « وقد أجمع المحققون على جلالته فى سائر العلوم كما تشهد بذلك كتبه ، وما انكر عليه من انكر الا لدقة كلامه لا غير ، فأنكروا على من يطالع من غير سلوك طريق الرياضة خوفا من حصول شبهة فى معتقده » (٢) .

وسئل عن « ابن عربى » الشيخ « قطب الدين الحموى » حين رجع من الشام ، فقيل له : كيف وجدت الشيخ محيى الدين ؟ فقال : وجدته فى العلم والزهد والمعارف بحرا زاخرا لا ساحل له ، قال وأنشدنى الشيخ بلفظه من جملة أبيات :

تركنـــا البحــار الزاخــرات وراءنا
فمن أين يدرى الناس أين توجهنا (٣)

---

(١) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٠ وما بعدها .

(٢) دائرة معارف البستانى ج ١ مادة ابن عربى .

(٣) اليواقيت والجواهر ص ١٠ .

وقال عنه صلاح الدين الصفدى : « من أراد أن ينظر الى كلام أهل العلوم اللدنية فلينظر فى كتب الشيخ محيى الدين بن العربى رحمه الله » (١) .

وذكر الشعرانى فى كتابه اليواقيت والجواهر وفى غيره من الكتب عددا كبيرا من المثنين على « ابن عربى » وكلهم من الأعلام الأفاضل مثل قطب الدين الشيرازى ، ومؤيد الدين الجخندى ، وفخر الدين الرازى ، ومحيى الدين النووى ، والامام ابن سعد اليافعى ، ومحمد المغربى الشاذلى شيخ جلال الدين السيوطى ، وسراج الدين المخزومى ، وبدر الدين بن جماعة ، كما ذكر جملة من أقوالهم التى يمجدون فيها الشيخ الأكبر وينسبونه الى الفضل والكمال .

ومن الشيوخ من ألف كتبا فى الدفاع عن ابن عربى ورد المعارضين عنه كما حدث من الفيروزابادى والشعرانى ، وكما حدث من جلال الدين السيوطى الذى ألف كتابا سماه تنبيه الغبى فى تبرئة ابن عربى . ردا على كتاب : تنبيه الغبى الى تكفير ابن عربى ، الذى ألفه برهان الدين البقاعى ، وكما حدث من سراج الدين المخزومى الذى ألف كتابا سماه : كشف الغطاء عن أسرار محيى الدين .

وجملة القول : فان « الذين أكبروا ابن عربى اكبارا خالصا وحسن اعتقادهم فيه بحيث لم تشبه شائبة من تشكيك فيه أو تكفير له ، فكثيرون لا يتسع المقام لاحصائهم واستقصاء آرائهم »(٢) . وحسبنا ما ذكرنا منهم على سبيل المثال لا على سبيل الاستقصاء .

---

(١) اليواقيت والجواهر ص ١٠ .

(٢) ابن الفارض سلطان العاشقين ص ٨٧ .

آثار ابن عربي

(أ) أولاده :

ذكر المقرى فى نفح الطيب أن « ابن عربى » ولد له غلام فى « ملطية » فى رمضان سنة ٦١٨ هـ فى أثناء رحلته اليها وقد أسماه « سعد الدين » .

وقد شب هذا الغلام على نهج أبيـــه ، فسمع الحديث وقام بالتدريس ونبغ فى الأدب وقال الشعر الجيد الذى جمع فى ديوان وقد توفى سنة ٦٥٦ هـ .

وله أخ آخر اسمه عماد الدين أبو عبد الله محمد بن عربى توفى بالصالحية سنة ٦٦٧ هـ ، ودفن هذان الأخوان بجوار أبيهما فى سفح جبل قاسيون بتربة القاضى ابن الزكى الذى كان يجل الشيخ اجلالا عظيما وأنزله داره وأجرى له عطاء يوميا قدره ثلاثون درهما وزوجه ابنته فلما توفى دفن بمدافن أسرته .

كما أعقب « ابن عربى » بنتا أسماها « زينب » وقد ذكر أبوها عنها أنها منذ طفولتها الأولى كانت تصاحبها آيات خارقة .

(ب) تلاميذه واخوانه :

للشيخ الأكبر تلاميذ واخوان كثيرون . يضيق المقام عن الحديث عنهم بالتفصيل ، ولكنا نشير الى بعضهم .

فمن تلاميذه الذين تحدث عنهم فى كتبه : بدر الدين الحبشى . وكان ملازما له ، وأثيرا لديه .

ويذكر بعض المؤلفين أن من تلاميـــذه ابن الفارض . واتجه النابلسى شارح ديوان عمر بن الفارض هذا الاتجاه عند شرحه لبعض قصائد الديوان (١) .

ومن تلاميذه وأبرزهم « صدر الدين القونوى » الذى كان له فضل كبير فى المحافظة على مؤلفاته ونشر تعاليمه وعلومه .

ومن أصدقائه الكثيرين الذين كان يجلهم الشيخ « أبو محمد ابن عبد العزيز التونسى » الذى استضاف ابن عربى فى أثناء زيارته لتونس .

ومنهم « مكين الدين الأصفهانى » امام مقام ابراهيم بمكة .

ومنهم « فخر الدين الرازى » الذى كان يكاتبه كثيرا .

ومنهم « أبو العباس الحرار » صاحب المناقب المشهورة .

ومنهم « أبو عبد الله زكريا بن محمود القـــاضى المعـروف بالقزوينى » صاحب عجـائب المخلوقات وغيره من الكتب . وغير هؤلاء كثير .

(جـ) مؤلفاته :

الشيخ الأكبر ترك عددا لا يحصى من المؤلفات ، ويبدو أن كثيرا من هذه المؤلفات قد فقدت ، فقد حدث الفيروزابادى : ـ « وقفت على أجازة كتبها للملك المعظم فقال فى آخرها ، وأجزته أن يروى عنى مصنفاتى ومن جملتهـــا كذا وكذا ، حتى عد نيفا وأربعمائة مصنف » (٢) .

---

(١) راجع ابن الفارض سلطان العاشقين ص ٩٣ .

(٢) نفح الطيب جـ ٧ ص ١٣٩ .

وقد ذكرت مصادر مختلفة أن ابن عربى له ما يقرب من ثلاثمائة مصنف ، فدائرة المعارف الاسلامية تقول « ويبلغ ما بقى من تواليفه مائة وخمسين كتابا ، ويظهر أن هذا العدد ليس الا نصف ما ألفه ابن العربى فى الواقع » (١) .

وتقول دائرة المعارف البريطانية « انه كتب ٢٨٩ كتابا نعرف منها ١٥٠ كتابا ذكرها بروكلمان فى كتابه الأدب العربى (٢) .

وقد بذل « بروكلمان » المستشرق الألمانى مجهودا مشكورا فى حصر ما بقى من كتب ابن عربى ، وضمنها موسوعته الضخمة التى تضم أسماء الكتب والمؤلفين العرب ، وأفرد لهذه الكتب ما يقرب من ثمانى صفحات تحمل الأولى منها قم ٥٧١ .

وهذا ثبت بأسماء هذه الكتب التى ذكرها بروكلمان (٣) .

١ ـ أجازة للملك المظفر بهاء الدين غازى الملك العادل فى جميع ما رواه عن أشياخه وما له من نثر ونظم ، وهو فى دمشق سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م . ٢ ـ رسالة فى تعليم المريدين . ٣ ـ كتاب العظمة (تفسير للفاتحة) . ٤ ـ كتاب التفسير بالحقيقة . ٥ ـ مشكاة الأنوار فيما روى عن الله سبحانه وتعالى من الأخبار . ٦ ـ الأحاديث القدسية . ٧ ـ تذكرة الخواص وعقيدة أهل الاختصاص . ٨ ، ٩ ـ رسالة العلوم من عقائد علماء الرسوم (مختارات) . ١٠ ـ صيحة البوم بحوادث الروم (شعر بالبسيط) ١٤٣ بيتا . ١١ ـ الفتوحات المكية فى معرفة الأسرار

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ج ١ مادة ابن عربى .

(٢) دائرة المعارف البريطانية مجلد ١٢ ص ٣٣ .

(٣) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ج ١ ص ٥٧١ .

الملكية والملكوتية . ١٢ ــ فصوص الحكم . ١٣ ــ شجرة الوجود والبحر المورود ــ مطبوع تحت شجرة الكون . ١٤ ــ عنقاء مغرب فى معرفة ختم الأولياء وشمس المغرب . ١٥ ــ رسالة كنه ما لابد للمريد منه . ١٦ ــ الاسرا الى المقام الأسرى (فى نفس المخطوط يوجد عنوان . الاسرا واختصار رحلة العالم الكونى الى الموقف الأعلى) . ١٧ ــ مشاهد الأسرار القدسية ومطالع الأنوار الالهية . ١٨ ــ التدبيرات الالهية فى اصلاح المملكة الانسانية . ١٩ ــ مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم . ٢٠ ــ مقام القربة (وفك الكربة) . ٢١ ــ الأنوار فيما يفتح على صاحب الخلوة من الأسرار . ٢٢ ــ الخلوة . ٢٣ ــ انشاء الدوائر الاحاطية على الدقائق على مضاهاة الانسان للخالق والخلائق . ٢٤ ــ الحق . ٢٥ ــ عقلة المستوفز . ٢٦ ــ تحفة السفرة الى حضرة الكرام لبررة . ٢٧ ــ الحجب . ٢٨ ــ وصف تجلى الذات (منسوب اليه) . ٢٩ ــ حلية الأبدال وما يظهر فيها من المعارف والأحوال . ٣٠ ــ شجون المشجون وفتون المفتون . ٣١ ــ الشواهد . ٣٢ ــ الاتحاد الكونى فى حضرة الاشهاد العينى . ٣٣ ــ كيمياء السعادة . ٣٤ ــ الافاضة لمن أراد الاستفاضة . ٣٥ ــ منزل المنازل . ٣٦ ــ الموازنة (مقارنة بين الدنيا والآخرة) . ٣٧ ــ نحت الأرواح (كيف خلق الله الروح والمنازل التى لابد لها أن تمر عليها لمعرفة الله) . ٣٨ ــ الأمر المحكم المربوط فيما يلزم أهل الطريق من الشروط . ٣٩ ــ الاعلام فيما بنى عليه الاسلام . ٤٠ ــ الاعلام باشارات أهل الالهام (الحكمة الالهية فى الرد على الفلسفة) . ٤١ ــ الفناء فى المشاهدة . ٤٢ ــ مراتب علوم الوهب . ٤٣ ــ فى الأزل . ٤٤ ــ شق الجيب ورفع حجاب

الريب عن اظهار أسرار الغيب . ٤٥ ـ تفسـير آية الكرسى .
٤٦ ـ اشارات القرآن فى عالم الانسان . ٤٧ ـ كتاب السبعة
وهو كتاب الشأن . ٤٨ ـ تنزلات الاملاك للأملاك فى حركات
الأفلاك . ٤٩ ـ توحيد التوحيد . ٥٠ ـ التدقيق فى بحث
التحقيق . ٥١ ـ القسم الالهى باسم الربانى . ٥٢ ـ المضادة
فى علم الظاهر والباطن . ٥٣ ـ الغايات فيما ورد من الغيب فى
تفسـير بعض الآيات . ٥٤ ـ تاج الرسائل ومنهاج الوسائل .
٥٥ ـ الرسالة المفيدة . ٥٦ ـ الدرة الفاخرة فى ذكر من انتفعت
بهم فى الآخرة ورسـالة روح القدس (رسالات القدس فى نفحات
النفس) . ٥٧ ـ الجلالة . ٥٨ ـ جواب عن مسألة السبحة
السوداء وهى الهيولا . ٥٩ ـ رسالة النشأتين ٦٠ ـ مفاتيح
الغيب . ٦١ ـ تهذيب الأخلاق . ٦٢ ـ المدخل الى معرفة مأخذ
النظر فى الأسماء والكنايات الالهية . ٦٣ ـ القطب والنقبـاء .
٦٤ ـ وسائل المسائل . ٦٥ ـ تاج التراجم . ٦٦ ـ ترجمـان
الألفاظ المحمدية . ٦٧ ـ الاصطلاحات الصوفية ـ ٦٨ ـ شرح
الألفاظ التى تداولها الصوفية . ٦٩ ـ المقتنع فى ايضاح السهل
الممتنع . ٧٠ ـ الحروف الثلاثة التى انعطفت أواخرها على أوائلها .
٧١ ـ الألف وهو كتابة الأحدية . ٧٢ ـ الباء وهو مفتاح دار
الحقيقة . ٧٣ ـ كتاب الياء وهو كتاب السهو . ٧٤ ـ مفتاح
الجفر الجامع . ٧٥ ـ جفر الامام على بن أبى طالب . ٧٦ ـ أسرار
الحروف . ٧٧ ـ جفر النهاية ومبين خبايا أسرار كنوز البداية
والغاية . ٧٨ ـ فائدة (الألعـاب السـحرية بالحروف) .
٧٩ ـ مائة حديث وواحد قدسية . ٨٠ ـ نسـب الخرقة .
٨١ ـ التجليات الالهية . ٨٢ ـ عظة الألباب وذخيرة الاكتساب
(منسوب اليه) . ٨٣ ـ انشاء الجسوم الانسانية . ٨٤ ـ نتيجة
الحق . ٨٥ ـ عيون المسائل . ٨٦ ـ توقيعات . ٨٧ ـ أسرار

الوجود . ٨٨ ـ أسر المحبة . ٨٩ ـ بلغة الغواص فى الأكوان الى معدن الاخلاص فى معرفة الانسان . ٩٠ ـ قبس الأنوار وبهجة الأسرار . ٩١ ـ الفرق الست الباطلة وذكر أعدادها . ٩٢ ـ الأجوبة اللائقة عن الأسئلة الفائقة . ٩٣ ـ الطريقة فى بيان الشريعة والحقيقة . ٩٤ ـ مرآة المعانى لادراك العالم الانسانى . ٩٥ ـ ثواب اقضاء حوائج الاخوان واغاثة اللهفان . ٩٦ ـ الامام المبين الذى لا يدخله ريب ولا تخمين . ٩٧ ـ التنزلات الموصلية . ٩٨ ـ جدول عظيم فى استخراج العقل من القرآن العظيم . ٩٩ ـ أسفار من سفر نوح . ١٠٠ ـ رسالة العبادة . ١٠١ ـ شرح كتاب خلع النعلين فى الوصول الى حضرة الجمعين . ١٠٢ ـ رسالة فى الأحدية . (أسئلة حكيم ترمذى) . ١٠٥ ـ رسالة أرسلها لأصحاب الشيخ عبد العزيز بن محمد المهــــدى . ١٠٦ ـ رسالة الغوثية . ١٠٧ ـ رسالة أرسلها الى فخر الدين الرازى . ١٠٨ ـ رسالة فى تصوير آدم على صورة الكمال . ١٠٩ ـ أربع رسائل تصوف . ١١٠ ـ نسخة الحق . ١١١ ـ لغة الأرواح . ١١٢ ـ الصلاة الأكبرية . ١١٣ ـ أوراد الأيام والليالى ـ ١١٤ ـ أوراد الأسبوع ـ ١١٥ ـ الصلاة الفيضية . ١١٦ ـ وصية . ١١٧ ـ الحكم الالهية. ١١٨ ـ الصحف الناموسية والسجف الناووسية . ١١٩ ـ الشجرة النعمانية فى الدولة العثمانية . ١٢٠ ـ حكم . ١٢١ ـ العبادة . ١٢٢ ـ اللمع الأفقية . ١٢٣ ـ محاضرات الأبرار . ١٢٤ ـ ترجمان الأشواق . ١٢٥ ـ ديوان (الديوان الأكبر) . ١٢٦ ـ ديوان الأشواق (الهجاء الأمجد على ترتيب حروف الأبجد) . ١٢٧ ـ ديوان المرتجلات . ١٢٨ ـ المبشرات . ١٢٩ ـ تنزل الأرواح بروح الاله . ١٣٠ ـ القصيدة التائية . ١٣١ ـ منهاج العارف والمتقى ومعراج الســـالك والمرتقى . ١٣٢ ـ المبشرات الميــــمونة .

١٣٣ ـ قصيدة فى المناسك • ١٣٤ ـ الجواب المستقيم • ١٣٥ ـ رسالة تحقيق وجوب الواجب لذاته • ١٣٦ ـ فى سر الحروف • ١٣٧ ـ نجمات الأفلاك • ١٣٨ ـ الدرر •

وقد ذكرت دائرة المعارف للبستانى له ما يقرب من خمسين مؤلفا من بين هذه المؤلفات • وهذه المؤلفات التى ذكرت على ضخامة عددها هى نصف مؤلفات ابن عربى فقط ، على رأى الذى يقول ان مؤلفاته مائتان وثمانون كتابا أو ثلاثمائة كتاب ، وهى ثلث مؤلفاته عند من يقول نيف وأربعمائة كتاب •

وأيا كان هذا أو ذاك فهو نتاج ضخم يشهد لصاحبه بالمقدرة الخارقة الفائقة ، وهو وان كان بعض هذه الكتب صغير الحجم ، الا أن بعضها كبير الحجم ، فقد بلغ أحد تفاسيره ستين سفرا (١) ولم يتمه ، فقد وقف فيه عند قوله تعالى « وعلمناه من لدنا علما » وله تفسير آخر صغير فى ثمانية أسفار ، وكتاب الفتوحات المكية بلغت فصوله خمسين وستمائة فى أكثر من أربعة آلاف صفحة مطبوعة بحروف صغيرة على أن المسألة ليست بكثرة الأوراق وتضاعف الأجزاء ، ولكنها بما تحويه هذه الأوراق من أسرار ومعارف ، والشيخ الأكبر له فى ذلك القدح المعلى والشأو الذى لا يلحق بشهادة فحول العلماء وأجلاؤهم •

والملحوظ أن تآليف الشيخ الأكبر تدور حول التصوف فيما عدا أحد تفسيريه الذى يجرى فيه على طريقة التفسير التقليدى، ولم يتم هذا التفسير ، أما التفسير الآخر فيجرى فيه على طريقة الصوفية فى اشاراتهم وأذواقهم •

وله من الحديث عدة كتب فى كل منها مجموعة من الأحاديث

---

(١) نفح الطيب جـ ٧ ص ١٣٩ هامش •

القدسية ، وله بدار الكتب كتاب لم يشر اليه بروكلمان يحمل اسم « أصول الفقه » برقم ٦١٢ . أما بقية كتبه فتناول فيها التصوف ودقائقه وأسراره ، حتى الكتب الأدبية كتب صوفية بما فى ذلك « محاضرة الأبرار » الذى يحشد فيها كثيرا من الأسرار الصوفية وقصص المتصوفة وبعض هذه الكتب دقيق غريب ككتاب «الدوائر» الذى يشرح فيه بالأشكال الهندسية آراءه فى الكون .

ويفسر فى كتاب مواقع النجوم أسرار العبادات ومراحل الطريق فى الوصول الى الله وقد ألفه فى « المرية » بالهام من الله وتوجيه منه .

ويبدو أن الشيخ الأكبر فى كتاباته كان يخضع لهذا التوجيه وذلك الالهام ، فانه قرر فى أكثر من موضع أن ذلك الكلام لم يكن اختيارا له ولكنه من الهام الله له ، نقل عنه الشعرانى فى الكبريت الأحمر قوله : « واعلم أن جميع ما أتكلم به فى مجالسى وتصانيفى انما هو من حضرة القرآن وخزائنه ، فانى أعطيت مفاتيح الفهم فيه والامداد منه ، كل ذلك حتى لا أخرج عن مجالسة الحق تعالى ومناجاته بكلامه » وكذلك قوله « واعلم أن جميع ما أكتبه فى تآليفى ليس هو عن روية وفكر ، وانما هو من نفث روعى على يد ملك الالهام » وكذلك قوله « جميع ما كتبته وأكتبه فى هذا الكتاب انما هو من املاء الهى والقاء ربانى أو نفث روحانى كل ذلك بحكم الارث للأنبياء والتبعية لهم لا بحكم الاستقلال » (١) .

وكل كتبه تحتاج الى دقة فهم وحسن ظن فى التوفر على مطالعتها حتى يتمكن القارىء من معرفة مقاصده منها ، وقد أشار هو الى ذلك فى الباب الثانى من الفتوحات بقوله « أقل درجات أهل الأدب مع

---

(١) الكبريت الأحمر ص ٤ .

القوم التسليم لهم فيما يقولون ، وأعلاها القطع بصدقهم وما عدا هذين المقامين فحرمان » (١) .

ولكى تدرك ذلك لابد من القاء الضوء على بعض كتبه التى كانت لها أهميتها الفائقة فى جميع الآفاق العلمية والعقلية ، وهذه الكتب هى الفتوحات المكية ، وفصوص الحكم .

١ ـ الفتوحات المكية :

ألف الشيخ الأكبر هذا الكتاب فى مكة على فترات ، وهو أجمع كتاب فى التصوف ، وتعتبره دائرة المعارف البريطانية دائرة معارف التصوف ، وكان هذا الكتاب ـ ولا يزال ـ له أهمية كبرى بين رجال الطريق ، فقد عبر فيه ابن عربى عن كل أذواقه ومشاهداته وسجل فيه بدقة كل مراحله فى سيره ، حتى لقد استقى منه بعض المترجمين لحياته دقائق سيرته .

بدأ ابن عربى كتابه الفتوحات عقب ذهابه الى مكة ، وهناك شاهد فى الطواف حول الكعبة . وفى الاقامة فيها من الأسرار والمشاهدات ما أراد أن يوقف عليه اخوانه المقربين اليه ، وفى مقدمتهم الشيخ أبو محمد عبد العزيز التونسى وتلميذه بدر الدين الحبشى ، ولذلك كان عنوانه « الفتوحات المكية فى معرفة الأسرار المالكية والملكية » .

والكتاب ضخم يحتوى على أربعة أجزاء ضخمة ، وكل جزء يحتوى على مجلدات ، وينقسم الكتاب من حيث الموضوعات الى ستة أقسام :

---

(١) الكبريت الأحمر ص ٦

١ - القسم الأول : المعـارف		ويحتوى على ثلاثة وسبعين بابا
٢ - « الثانى : المعاملات		ويحتوى على ستة عشر ومائة باب
٣ - « الثالث : الأحـوال		ويحتوى على ثمانين بابا
٤ - « الرابع : المنـازل		ويحتوى على أربعة عشر ومائة باب
٥ - « الخامس : المنازلات		ويحتوى على ثمانية وسبعين بابا
٦ - « السادس: المقامات		ويحتوى على تسعة وتسعين بابا

فجملة أبوابه ستون وخمسمائة باب ، تتناول شتى العلوم والمعارف الصوفية ، كما تتناول غيرها من العلوم ، والمعارف الأخرى التى يستدعيها الحديث من فقه وحديث ومعاملات وتاريخ وسياسة وغير ذلك . يقول عنه الشعرانى : « طالعت من كتب القوم مالا أحصيه وما وجدت كتابا أجمع لكلام أهل الطريق من كتاب الفتوحات المكية ، لا سيما ما تكلم فيه من أسرار الشريعة ، وبيان منازع المجتهدين التى استنبطوا منها أموالهم ، فان نظر فيه مجتهد من الشريعة ازداد علما الى علمه واطلع على أسرار فى وجوه الاستنباط وعلى تعليلات صحيحة لم تكن عنده ، وان نظر فيه مفسر للقرآن فكذلك ، أو مقرىء فكذلك ، أو معبر للمقامات فكذلك ، أو عالم بالطبيعة وصنعة الطب فكذلك ، أو عالم بالهندسة فكذلك ، أو نحوى فكذلك ، أو منطقى فكذلك ، فهو كتاب يفيد أصحاب هذه العلوم أو غيرها ، علوما لم تخطر لهم على بال ، وقد أشرنا لنحو ثلاثة آلاف علم منها فى كتابنا المسمى تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء » (١) .

وكتاب الفتوحات نظرا لضخامته لا يمكن أن يكون قد ألف فى مدة محدودة ، وان كان بعض المصادر يشير الى أنه كان يكتب كل

---

(١) الكبريت الأحمر المقدمة .

يوم منه ثلاث كراسات دون توقف أين كان(١) وقال الفيروزابادى : انه صنف الفتوحات فى مكة كتبها عن ظهر قلب جوابا لسؤال سأله عنه تلميذه بدر الحبشى ، ولما فرغ منها وضعها فى سطح الكعبة المعظمة ، فأقامت فيه سنة ثم أنزلها فوجدها كما وضعها لم يبتل منها ورقة ولا لعبت بها الرياح مع كثرة أمطار مكة ورياحها ، وما أذن للناس فى كتابتها وقراءتها الا بعد ذلك (٢) .

ولكن يبدو أن ذلك كان بخصوص بعض الكتاب لا كل الكتاب ، فان الثابت أن هذا الكتاب كان آخر كتبه تأليفا ، ذكر ذلك الأستاذ أحمد يوسف نجاتى فى نفح الطيب (٣) كما ذكر أنه قد انتهى من تأليفه سنة ٦٣٦ هـ ، وكان فى ذلك الوقت مقيما بدمشق قبل وفاته بعامين ، كما أنه من الثابت أيضا أن هذا الكتاب لم يمكن تأليفه متتابعا ، ولكنه ألف على فترات ، ولم يتم تأليفه أيضا على حسب الترتيب المتعارف . فقد ذكر أسين بلاثيوس أنه فى سنة ٦٢٨ هـ كان يكتب أول الجزء الرابع ، وأنه فى سنة ٦٣٤ كان لا يزال يكتب خاتمة الجزء الثانى وفى السنة التالية ٦٣٥ كان يكتب الجزء الثالث . وليس هناك من يفسر سبب ذلك الا ما ذكره هو بأن ترتيب الفتوحات لم يكن من وضعه هو ، ولكن كان بنـاء على ما كان يملى عليه من توجيهات سماوية ، ولذلك نسمعه يقول : بنيت كتابى هذا ــ بل بناه الله لا أنا ــ على افادة الخلق ، فكله فتح من الله تعالى وسلكت فيه طريق الاختصار .

وليس من اليسير اعطاء فكرة ولو موجزة عن هذا الكتاب الذى « يعد كنزا دفينا » على حد تعبير مؤلف كتاب ابن عربى . اللهم

(١) نفح الطيب جـ ٧ ص ١٠٨ .

(٢) اليواقيت والجواهر ص ١٠ .

(٣) نفح الطيب جـ ٧ هامش ص ١٣٦ .

الا اذا قلنا كما قال السادة الصوفية عنه : انه أجمع كتاب للتصوف بما احتوى عليه من دقائق التصوف وارشاداته ، ومن الموضوعات العامة للكتاب السابق الاشارة اليها يمكن ادراك ذلك بوضــوح ، كما أنه لم يهمل العلوم الأخرى ، حتى أنه ليجد فيه كل مطلع بغيته ورغبته .

ويغلب على كتاب الفتوحات الاستطراد الذى يبعث عليه الرغبة فى الافادة التى هدف اليها من وضع كتابه ، كما أنه لم يغفل فى كتابه ما يحتاج اليه المريد من خطوط أساسية تعينه على بلوغ هدفه وسيره فى طريقه بأمان . وكثيرا ما يشير فيه الى كتبه السابقة .

ولم يغفل ابن عربى ما يجب على المريد معرفته من أسرار العبادة وآدابها ، مقدما له فى الجزء الأول زادا كافيا فى النية والطهـــارة وأنواعها وأسرارها والصلاة وفروضها وشرائطها وأركانها وسننها وأوقاتها وآدابها وكيفية اقامتها وأسرار أدائها وغير ذلك من ألوان المعرفة الفقهية والشرعية التى تصـــل بالمريد الى أبواب المعرفة الصوفية الشاملة .

ويعد كتاب الفتوحات سجلا لحياة الشيخ الأكبر ، فقد بين فيه بالتواريخ خطوات حياته التى أفاد منها بعض المترجمين لها ، كما أنه يعد سجلا لما شاهده فى تاريخ هذه الحياة الحافلة بالأسرار والأنوار وما كشف له فيها وما لاقاه من مصاعب وما أتيح له فيها من فرص روحية .

على أن ذكر هذه الخطوات لم يأت على نظام كتابة السير المعروفة ، ولكنه يأتى عفوا على حسب ما تسنح به المناسبة ويستدعيه المقام . فهو عند حديثه عن الأبدال مثلا يذكر من لقيه منهم ومتى ، ويسجل ما دار بينه وبينهم من حديث . وعند حديثه عن التوكل يذكر من لقيه من المتوكلين ومتى وأين وكيف كان حديثه معه وماذا أفاد منه .

وعند حديثه عن الخضر يذكر طرفا من لقائه معه وماذا دار بينهما من حديث وهكذا .

ومن الكتاب ندرك أن تأليفه لم يكن يسير على نمط الكتب العادية التى تجرى على منهج معين وتسير على حسب خطة موضوعة . ولكنه يسير على وفق ما يجرى به الخاطر الروحى وقد ذكر ذلك فى غير موضع ويقول : « واعلم أن ترتيب أبواب الفتوحات لم يكن عن اختيار ولا عن نظر فكرى ، وانما الحق تعالى يملى لنا على لسان ملك الالهام جميع ما نسطره وقد نذكر كلاما بين كلامين لا تعلق له بما قبله ولا بما بعده وذلك شبيه بقوله تعالى « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » بين آيات طلاق ونكاح وعدة وفاة تتقدمها وتتأخرها » (١) ويقول « اعلم أن العارفين انما كانوا لا يتقيدون بالكلام على ما بوبوا عليه فقط لأن قلوبهم عاكفة على باب الحضرة الالهية مراقبة لما يبرز منها فمهما برز لها أمر بادرت لامتثاله ، وألفته على حساب ما حولها ، فقد تلقى الشىء الى ماليس من جنسه امتثالا لأمر ربها » (٢) .

وفى أول بعض الأبواب نجد قصيدة من الشعر تشير الى مضمون الباب وقد لا تشير اليه وهذه الطريقة سار عليها الجيلى من بعده فى كتاب الانسان الكامل . وقد أشار الشيخ الأكبر نفسه الى هذه الملحوظة ، وهى عدم اجمال موضوع الباب فى القصيدة المتقدمة فى بعض الأحيان بقوله : واعلم أن هذه القصيدة وكل قصيدة من أول كل باب من هذا الكتاب ليس المقصود منها اجمال ما يأتى مفصلا فى نثر الباب والكلام عليه ، بل الشعر فى نفسه من جملة شرح ذلك الباب فلا يتكرر فى الكلام الذى يأتى بعد الشعر ، فلينظر الشعر فى شرح الباب كما ينظر النثر من الكلام عليه نفس

---

(١) الفتوحات المكية الجزء ٣ الباب ٣٤٨ .

(٢) الكبريت الأحمر : المقدمة .

الشعر من مسائل ذلك الباب ما ليس فى الكلام عليه بطريق النثر وهى مسائل مفردات تستقل كل مسألة فى الغالب بنفسها الا أن يكون بين المسألتين رابطة فيطلب بعضها بعضا » .

ونظرا لخطورة هذا الكتاب وما يحتـــوى عليه من معلومات أثارت معـــارك جدلية غير قليلة برز الاهتمام به بين الصـــوفية وغيرهم .

ويبدو أن بعض المغرضين قد أضاف اليه ما ليس منه مما يعد منافيا للشريعة بقصد الاضرار بمؤلفه ، وحين قوبلت هذه النسخ المحرفة بالنسخة الأصلية ظهر الزيف وكانت النسخة الأصلية محفوظة « بقونية » .

ولكن ينبغى أن نلاحظ أن هناك كثيرا من القضـــايا الواردة فى الفتوحات ليس من الممكن فهمها بسهولة ، ويرجع ذلك الى أن ادراكها لا يتم الا لمتمكن من الطريق الصوفى ، ومن هنا جاء التنبيه الى أنه لا يحق لكل من أراد الاطلاع أن يطلع على هذا الكتاب ، وهذا الحكم ليس منصرفا فى الواقع الى كتاب الفتوحات وحده ولكنه ينصرف الى الفتوحات وغيره من الكتب التى ألفها الشيخ الأكبر .

وقد شرح الجيلى كتاب الفتوحات ، كما تأثر به من كتابه المشهور « الانسان الكامل » فى معرفة الأواخر والأوائل .

واختصره الشعرانى فى كتـــاب « لوائح الأنوار القدسية » ، وعاد فاختصره مرة أخرى من كتابه « الكبريت الأحمر » ، وذكر فى كتاب « اليواقيت والجواهر » مسائل متعددة منه ومن ذلك مثلا قال « محيى الدين بن عربى » فى صفة العارف بالله :

« هو من أشعر قلبه الهيبة والسكينة وعدم العلاقة الصارفة عن شهود الحق تعالى واذا ذكر الله واستولى عليه الذكر يغيب عن

الأكوان ، يهابه كل ناظر اليه ، هو مع الله بلا وصل ولا فعل ، كثير الحياء ، فى قلبه التعظيم ، يقدم حق الحق تعالى على حظوظ نفسه وبطنه جائع ، وبدنه عار ، لا يأسف قط على شىء لكونه لا يرى غير الله ، طيار أمد الدهر ، تبكى عينه ويضحك قلبه ، هو كالأرض يطؤه البر والفاجر ، وكالسحاب يظل كل شىء ، وكالمطر يسقى ما يجب وما لا يجب ، لا يقضى وطره قط من شىء ، وذلك ليدوم افتقاره الى الله تعالى ذوقا ، شأنه الفقر والذل بين يدى الله يفتح له فى فراشه كما يفتح له فى صلاته وان اختلفت الواردات بحسب المواطن » .

وللفتوحات مقدمة طويلة لها قصة طريفة ، هى أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم وقد أحاط به الملائكة والأنبياء والأولياء والعلماء ، فدعاه النبى صلى الله عليه وسلم للصعود على منبره ، وخلع عليه بردته البيضاء ، وألقى « ابن عربى » خطبة طويلة يقول انها من وحى روح القدس ، وهذه الخطبة هى مقدمة الكتاب .

والمقدمة نفسها تحتوى على آرائه الروحية التى يوضح فيها مضمون موضوعات الكتاب السابق الاشارة اليها .

وبالجملة فان هذا الكتاب من الكتب التى تستحق جهد المهتمين بشئون التصوف ، فيتولونه بالتحقيق ويتعهدونه بالنشر وجودة الطبع فى ثوب أنيق جميل يليق بما يحتويه من علوم رائعة وأسرار فائقة وأذواق عالية — ويا حبذا لو تيسر اقتناؤه مع غيره من كتب هذا العبقرى الفذ الذى كان يحلق فى أجواء المعرفة لا يهدأ له بال ولا يستريح من عناء التجوال — وترك من ورائه هذه الثروة الحية التى تشهد بعلو الباع ورسوخ القدم وقوة التمكن .

٣ - فصوص الحكم :

يعد هذا الكتاب من أشهر الكتب التى كان لهـا أثر فى اذاعة مكانة الشيخ الأكبر ، نظرا لما يدل عليـه من أخبـار عن حقائق الأنبياء السابقين وعددهم سبعة وعشرون نبيا هم : آدم ، وشيث ، ونوح ، وادريس ، وابراهيم ، واسحاق ، واسماعيل ، ويعقوب ، ويوسف ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، ولوط ، والعزيز ، وعيسى ، وسليمان ، وداود ، ويونس ، وأيوب ، ويحيى ، وزكريا ، والياس ، ولقمان ، وموسى ، وهارون ، وخالد بن سنان ، ومحمد عليهم الصلاة والسلام . وقد ألف ابن عربى هذا الكتاب فى دمشق عقب اتخاذها دار اقامة له ، ويقول فى مقدمة كتابه : « أما بعـد فانى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مبشرة أديتها من العشر الأخر من المحرم سنة سبع وعشرين وستمائة بمحروسة دمشق وبيده صلى الله عليه وسلم كتـاب ، فقـال لى : هـذا كتاب فصوص الحكم ، خذه واخرج به الى الناس ينتفعون به ، فقلت : السمع والطاعة لله ولرسوله ولأولى الأمر منا ، كما أمرنا فحققت الأمنية وأخلصت النية ، وجردت القصد والهمة الى ابراز هذا الكتاب كما عده لى الرسول من غير زيادة أو نقصـان ، وسألت الله أن يجعلنى فيه وفى جميع أحوالى من عباده الذين ليس للشيطان عليهم سلطان ، وأن يخصنى من جميع ما يرقمه بنانى وينطق به لسانى وينطوى جنانى بالالقاء السبوحى والنفث الروحى فى الروع النفسى بالتأييد الاعتصامى ، حتى أكون مترجما لا متحكما ، ليتحقق من يقف عليه من أهل الله أصحاب القلوب أنه من مقام التقديس ، المنزه عن الأغراض النفسية التى يدخلها التلبيس ، وأرجو أن يكون الحق لما سمع دعائى قد أجاب ندائى ، فما ألقى الا ما يلقى الى ، ولا أنزل من هذا المسطور الا ما ينزل به على ، ولست بنبى ولا رسول ولكنى وارث ولآخرتى حارث » .

وقد استعار كلمة الفص للانسان الذى يمثل الحقيقة بالنسبة لبقية أنواع العالم كما يمثل نقش الفص فى الخاتم حقيقة الخاتم . فكأن العالم خاتم فصه الانسان ، وهذا يبين أفضلية الانسان على العالم ، ثم جعل الأنبياء فصوصا بالنسبة لأفراد الانسان ، فكأن الانسان خاتم فصه الأنبياء .

وقد أشار القاشانى الى هذه التسمية عند تعرضه لشرح أول فص من فصوص الحكم قائلا : « لما استعار الفص لنوع الانسان وحقيقته المعبر عنه بآدم كان قلب كل انسان عارف بالله كامل فصا هو محل حكمته المخصوصة به » كما أشار ابن عربى نفسه الى سبب هذه التسمية عند حكمة آدم بقوله : « فهو (أى آدم) من العالم كفص الخاتم من الخاتم هو محل النقش والعلامة التى يختم الملك على خزائنه » .

وقد عمد الشيخ الأكبر كعادته فى تأليفه الى الافاضة في الأسرار التى كوشف بها ، وتوصل اليها بناء على ذوقه وفهمه ، فان العلم فى نظره ثلاثة أنواع ، كما أشار الى ذلك فى كتاب الفتوحات ، هى علم العقل الذى يحدث بناء على النظر والتفكير والاستدلال ، وعلم الأحوال وسبيله الذوق ، وعلم الأسرار وهذا فوق طور العقل ، وطريقه نفث الروح فى الروع ، وهذا العلم نوعان : نوع يدرك بالعقل والآخر على ضربين : ضرب يدرك بالذوق والثانى عن طريق الاخبار .

وهذا العلم الذى بثه فى كتابه فصوص الحكم من النوع الثالث ، الذى فوق طور العقل وجاءه عن طريق نفث الروح فى روعه كما أشار الى ذلك فى مقدمة كتابه . ولذلك فقد أوجد هذا الكتاب صدى كبيرا بين طوائف الصوفية والفقهاء وعده كثير منهم معبرا عن رأى ابن عربى فيما أسند اليه من نظرية وحدة الوجود ، ولكن ينبغى التنبه الى ما سبق الاشارة اليه من هذه

الوحدة ، التى لا يصح تفهمها على أساس اتحاد بين قديم وحديث أو حلول قديم فى محدث ، فذلك الذى نبه الصوفية جميعهم وبخاصة الشيخ الأكبر على وجوب نفيه من الأذهان تماما تعارضه مع جلال الذات الالهية القـــديمة المحيطة التى وسعت كل شىء ولم يسعها شىء ، وأن وحدة الوجود التى يقصـــدونها انما هى اثبات الوجود الحقيقى الواجب الوجود وأما غيره من المحـــدثات فلا وجود له على سبيل الحقيقة مع الله تعالى .

وقد نبه شراح الفصوص جميعهم على وجوب مراعاة هـــذه الدقائق ، وأفاضوا فيهـــا وشرحوا مقصـــــد الشيخ من عباداته المزحمة التى وردت فى الكتاب من أمثال قوله من « نوح » .

« فما أنت هـــو ، بل أنت هـــو وتراه فى عين الأمور مسرحا ومفيدا » فان المقصود نفى المماثلة من جهة واثباتها من جهـــة ، نفيها من حيث أنه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، واثباتها من حيث الصفات التى يجب أن يتخلق بها الانسان فى قوله عليه الصلاة والسلام تخلقوا بأخلاق الله ، فالانسان له صفة السمع والبصر والقدرة والكلام وغير ذلك . وهى صفات أثبتها الله جل جلاله لنفسه وعلى هذا فينبغى مراعاة أمثال هذه الاشـــــارات فى كلام الشيخ الذى لا يقصد منه حلولا أو اتحادا ، بل هى عبارات واردة فى أحوال خاصـــة عبر بها عن مدلولات ذاقها وكوشف بها ، وكان القصد من بثها هو الصعود بالفكر الانسانى الى مرتبة عليا ، تحثه على بذل الجهد من ادراك معرفة نفسه التى هى سبيله الى معرفة ربه ، ولذلك نسمعه يوجه الأذهان الى التفكير فى مدلولات الكلام لادراك ما يقصد ادراكا حقيقيا لا يتنافى مع مرامى الشرع ومقاصـــده :

فمن الله فاسمعوا — والى الله فارجعوا
فاذا ما سمعتم — ما أتيت به فسعوا
ثم بالفهم فصلوا — مجمل القول واجمعوا
ثم منوا به على — طالبيه لا تمنعوا
هذه الرحمة التى — وسعتكم فوسعوا

وقد أشار ابن عربى فى كتاب الفصوص الى الأنبياء على حسب مراتبهم ، فآدم أراد الله أن يظهر به سره اليه ، وشيث وهو الولد الأول لآدم هو المظهر للفيض الالهى ، ونوح هو مظهر تنزيه الله عن كل نقص ، وادريس كذلك ، ولذلك أضاف نوحا الى التسبيح وادريس الى التقديس ، وابراهيم عليه السلام — كان فى مرتبة التهيم ، وهو شدة التوله والعشق لأن الحق تجلى له بجلال جماله فهام فى ذلك الجمال المبرقع بالجلال ، وكان اسحق فى مقام التحقق لأنه حقق رؤيا أبيه فيه بذبحه ، وخص اسماعيل بالحكمة العلية ، وغلبت الروحانية على يعقوب والنور على يوسف .. وهكذا .

وقد عد ابن عربى لقمان من الأنبياء ووصفه بأنه من أهل مقام الاحسان وذلك لأن الغالب على حاله عليه السلام الاحسان بالشهود العلمى والحكمة والتوحيد والاسلام فى قوله تعالى « ومن يسلم وجهه لله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى » وقوله « وآتينا لقمان الحكمة » والحكمة والاحسان اخوان لأن الاحسان فعل ما ينبغى والحكمة وضع الشىء فى موضعه ، ويظهر ذلك فى وصيته لابنه : يا بنى لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم (١) وقد اختلف العلماء فى شأن لقمان هل هو نبى أو حكيم ، « وهو لقمان بن باعورا ، ابن أخت أيوب أو ابن خالته ، وقيل : كان من أولاد آرز ، وعاش

(١) شرح القاشانى على فصوص الحكم ص ٢٧٢ .

الف سنة ، وأدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم ، وكان يفتى قبل مبعث داود عليه السلام ، فلما بعث قطع الفتوى ، فقيل له : لم ؟ فقال : ألا أكتفى اذا كفيت ؟ • وقيل : كان قاضيا فى بنى اسرائيل ، وأكثر الأقاويل أنه كان حكيما ولم يكن نبيا ، وقال عكرمة والشعبى : كان نبيا ، وقيل : خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة » (١) •

كما ذكر الشيخ الأكبر خبر النبى الذى أضاعه قومه وهو خالد ابن سنان وكان مشهده الصمدية ، وهو نبى لم يبعث ، أخبر عنه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله عنه : هو نبى أضاعه قومه •

وكان من قصة خالد : أنه كان قوى الهمة ، والغالب عليه شهود الأحدية ، وكان هو وقومه يسكنون بلاد عدن ، فظهرت بينهم نار عظيمة خرجت من مغارة فأهلكت الزرع والضرع ، فصمد اليه قومه على حسب ما اعتادوا منه فى دفع الملمات ، حتى يدفع عنهم أذى تلك النار ، وكانوا مؤمنين بها فأخذ خالد يضرب تلك النار بعصاه من خلفها ويقول : بدا بدا ، حتى بردت النار ، فرجعت هاربة منه الى المغارة التى خرجت منها ، وهو يسوقها حتى أدخلها ، ثم قال لأولاده وقومه : انى أدخل المغارة خلف النار حتى أطفيها ، فأمرهم أن يدعوه بعد ثلاثة أيام تامة ، فانهم ان نادوه قبل انقضائها فهو يخرج ويموت وان صبروا خرج سالما وقد دفع عنهم مضرة النار ، فلما دخل صبروا يومين واستفزهم الشيطان فلم يصبروا تمام ثلاثة أيام ، فارتابوا أنه هلك •

فصاحوا به فرجع عليه السلام من المغارة ويداه على رأسه من الألم الذى أصابه من صياحهم ، فقال لهم : ضيعتمونى وأضعتم قولى

---

(١) بتصرف من الكشاف ج ٣ ص ٤٩٣ تفسير لقمان •

وعهدى ، وأخبرهم بموته وأمرهم أن يقبروه ويرقبوه أربعين يوما ، فانه يأتيهم قطيع من الغنم يقدمها حمار أبتر مقطوع الذنب ، فاذا حازى قبره ووقف فلينبشوا عليه قبره فانه يقوم ويخبرهم بجلية الأمر بعد الموت عن شهود ورؤية ، فيحصل للخلق كلهم عين اليقين بما أخبرت به الرسل عليهم السلام .

ثم مات خالد ، فدفنوه ، فانتظروا مضى الأربعين يوما وورد قطيع الغنم فجاء القطيع كما يذكر يقدمه حمار أبتر ، فوقف حذاء قبره ، فهم مؤمنو قومه وأولاده أن ينبشوا عليه كما أمرهم ، حتى يخبرهم بصدق الأنبياء والنبوات كلها ، فأبى أكابر أولاده ، وقالوا : يكون علينا عارا عند العرب أن ينبش على أبينا فيقال فينا : أولاد المنبوش ، وندعى بذلك ، فحملتهم الحمية الجاهلية على ذلك فضيعوا وصيته وأضاعوه .

ثم بعد بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءته بنت خالد فقال لها صلى الله عليه وسلم ، مرحبا يا بنت نبى أضاعه قومه (١) .

وقد وردت هذه القصة فى محاضرة الأبرار (٢) وفى حياة الحيوان للدميرى (٣) وختم الشيخ الأكبر فصوصه الحكمية بمحمد صلى الله عليه وسلم ليكون مسك الختام وهو ترتيب طبيعى لتنسيق الكتاب ، ويوضح ابن عربى رأيه فى الحقيقة المحمدية على اعتبار أنه صلى الله عليه وسلم فى مقام الفردية ، لأنه أول التعينات وكان أول دليل على ربه فهو أوتى جوامع الكلم التى هى مسميات آدم ، فقد علم الله آدم الأسماء ، وعلم محمدا حقيقة هذه الأسماء ومعانيها ، وهذا هو المراد بقوله عليه الصلاة والسلام : أعطيت جوامع الكلم ،

---

(١) شرح القاشانى على الفصوص ص ٤٢٥ .

(٢) جـ ١ ص ٥٥ .

(٣) جـ ٢ ص ٢٩٥ .

وقد أشار الى هذه الحقيقة فى مؤلفاته الأخرى : مثـــل الفتوحات المكية وشجرة الكون .

هذا وقد ذكر الأستاذ أحمد يوسف نجاتي فى نفح الطيب أن العلماء اختلفوا فيما أورده فصوص الحكم ردا وقبولا ، فبعضهم أثنى عليه وتقبله بقبول حسن وشرحه ، ومن هؤلاء : ابن الزملكانى كمال الدين محمد بن على الأنصارى الشافعى المتوفى سنة ٧٢٧ هـ ، وشرحه أيضا المولى عبد الرحمن بن أحمد الجامى المتوفى سنة ٨٩٨ هـ وشرحه غير هذين كثير ومنهم الشيخ عبد الرازق القاشانى وعلق على هذا الشرح الشيخ محمد البارونى .

وفى حياة الشيخ الأكبر قام تلميذه صدر الدين القونوى بشرح هذا الكتاب واستمرت بعد ذلك الشروح تتوالى ومن بينها الشروح التى أشرنا اليها . وبذل فى ذلك مجهودات وافرة تشهد بالمهارة وقوة الادراك . وكانت هذه التفسيرات جميعها تتجه اتجاها سنيا لا يتعارض مع ظاهر الشريعة وفى ذلك شهادة لابن عربى بأنه لم يناقض مذهب أهل السنة . وان كان البعض من كبار الصوفية المتشددين مثل القارى الهروى المتوفى سنة ١٠١٦ هـ . وكذلك التفتازانى المتوفى سنة ٧٩١ هـ والشيخ ابراهيم محمد الحلبى الخطيب بجامع السلطان محمد خان المتوفى سنة ٩٥٦ هـ عارضوا ابن عربى فى آرائه وألف بعضهم كتبا ترد على الفصوص .

وقد ترجمت أبواب الفصوص ترجمة موجزة الى الهندية ونشرت فى مدينة موراس سنة ١٩٢٩ م (١)

وقد تأثر كثير من الصوفية بآراء ابن عربى فى كتابه الفصوص وبخاصة فى فكرة الحقيقة المحمدية التى سرعان ما اتجه اليهـــا

---

(١) ابن عربى ص ٩٨ .

المادحون والشعراء والأدباء فى قصائدهم وفى صيغ صلواتهم التى يمدحون فيها النبى ويصلون عليه .

ولعل البدوى وهو يكاد يكون معاصرا لابن عربى قد نحا هذا النحو فقد أثرت عنه هذه الصيغة : « اللهم صلى وسلم وبارك على سيدنا محمد شجرة الأصل النورانية ، ولمعة القبضة الرحمانية ، وأفضل الخليقة الانسانية ، وأشرف الصورة الجسمانية ، ومعدن الأسرار الربانية ، وخزائن العلوم الاصطفائية ، صاحب القبضة الأصلية والبهجة السنية والرتبة العلية ، من اندرج النبيون تحت لوائه فهم منه واليه .. » (١) .

ويبدو أن ابن عربى ليس أول قائل بهذه الفكرة فقد سبقه اليها الحلاج وأثر عن ابن مشيس أستاذ الشاذلى المعاصر لابن عربى هذه الصلاة :

« اللهم صل على من منه انشقت الأسرار ، وانفلقت الأنوار ، وفيه ارتقت الحقائق ، وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق ، وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق ، فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة ، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة ، ولا شىء الا وهو به منوط ، اذ لولا الواسطة لذهب — كما قيل — الموسوط ، صلاة تليق بك منك اليه كما هو أهله ، اللهم انه سرك الجامع الدال عليك ، وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك ، اللهم ألحقنى بنسبه وحققنى بحسبه ، وعرفنى اياه معرفة أسلم بها من موارد الجهل ، وأكرع بها من موارد الفضل ، واحملنى على سبيله الى حضرتك حملا محفوفا بنصرتك واقذف بى على الباطل فأدمغه ، وزج بى بحار الأحدية ، وانشلنى من أوحال التوحيد وأغرقنى فى عين بحر الوحدة حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس الا بها » (٢) .

---

(١) فتح الرسول (صلوات للميرغنى) .

(٢) فتح الرسول (صلوات للميرغنى) .

خاتمة

وبعد ، فقد تتبعنا خطوات هذه الشخصية العظيمة التى تركت آثارها واضحة فى كل مكان حطت رحالها فيه .

وهى شخصية . تحتاج الى افاضة أكثر فى عرض مختلف الجوانب التى ذكرت والتى لم تذكر .

لقد كانت حياة الشيخ الأكبر سلسلة متواصلة من العمل والسعى والبحث والمعرفة والتجوال ، لقد أنار الله بصيرته فذاق وكشف وشاهد ووصل الى مكانة فى المعرفة أطلق عليه من أجلها : سلطان العارفين . والعارف فسره هو بأنه من أشعر قلبه الهيبة والسكينة وعدم العلاقة الصارفة عن شهود الحق وفسره أبو العباس المرسى بقوله : العارف لا دنيا له ، لأن دنياه لآخرته وآخرته لربه .

وكانت حياة « ابن عربى » تصديقا لهذين التفسيرين . فهو لم تصرفه علاقة عن ربه ، ولم تكن له دنيا لأنه تركها لآخرته .

لقد كانت غايته المعرفة ، ومنذ نعومة أظفاره وهو مجد فى سبيل هذه الغاية هجر من أجلها كل لذة ، واستعذب كل عناء ، وركب كل صعب .

لقد رأينا كيف صوبت اليه سهام الملام وكيف اعترضت طريقه المصاعب فلم يثنه ذلك عن غايته ، هكذا كانت حياته حافلة بالجهاد

الأكبر • حتى تحقق بمختلف المقامات التى بدأها بالزهد العملى وانتهى بها الى مقام المعرفة وهو أعلى مقامات الوصول •

لقد أفاض سلطان العارفين فى أسرار المعرفة وتحدث عن حقائق تركت صداها العميق فى آفاق الفكر الاســـلامى وأبرز للتصوف مفاهيمه العليا فى نواحيه الأخلاقية والنفسية والروحية ، ولذلك يعده الدكتور مصطفى حلمى من أوفر المسلمين حظا من التصوف ويقول فى ذلك « ولعل محيى الدين بن عربى قد أظهرنا على ائتلاف العناصر الالهية والانسانية والكونية واتساقها فى كثير من مصنفاته ، كما يقول : وليس من شك فى أن ما يعرض له ابن عربى فى مصنفاته يكفى لاظهار حقيقة التصوف الاســـلامى وأنه ليس مجرد أشواق وأذواق ولا مجرد رياضات ومجاهدات ولا مجرد أحوال وأفعال وانما هو بعد هذا كله فلسفة الهية وانسانية وكونية وأن هذه الفلسفة بخصائصها الاسلامية الخالصة هى معقد الطرافة ومناط الروعة فيما خلف ابن عربى وأشباهه من صوفية المسلمين (١) •

ان حياة الشيخ سلطان العارفين التى تألقت فى آفاق الشرق الاسلامى على مدى ثمانين عاما ليست حياة شخص عاش هذه الحقبة من الزمن ثم راح • ولكنها حياة بدأت ولا زال أثرها حيا باقيا بما خلفته هذه الشخصية من مناقب وآثار ، ومعارف تحيا عليهـــا العقول والقلوب وتقتات منها النفوس والأرواح • وتحلق فى سمائها الخواطر والأذهان ؟

رحم الله « ابن عربى » ورضى الله عنه ؟

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا

والحمد لله رب العالمين ؟

عبد الحفيظ فرغلى القرنى

---

(١) مجلة منبر الاسلام جمادى الاخرة ١٣٨١ هـ •

المصادر

١ ــ الفتوحات المكية ... ... لابن عــربى

٢ ــ ذخائر الأعــلاق شرح ترجمـــان الأشواق ... ... لابن عــربى

٣ ــ محــاضرة الأبرار ومســـامرة الأخيار ... ... لابن عــربى

٤ ــ الأمر المحكم المربوط فيما يلزم اهل الطـريق من الشروط ... لابن عــربى

٥ ــ شجرة الكون ... ... لابن عــربى

٦ ــ مواقع النجوم ... ... لابن عــربى

٧ ــ شرح القاشـــانى على فصوص الحكم ... ... عبد الرازق القاشانى

٨ ــ الطبقات الكبرى ... ... الشعرانى

٩ ــ اليواقيت والجـواهر ... ... الشعرانى

١٠ ــ الكبريت الأحمر ... ... الشعرانى

١١ ــ ابن عربى حيـاته ومذهبه ... أسين بلاثيوس ترجمة د . عبد الرحمن بدوى

١٢ ـ شذرات الذهب ... ... لابن العماد

١٣ ـ الشعر الأندلسى ... ... ترجمة د . حسين مؤنس

١٤ ـ نفح الطيب ... ... للمقرى ـ تحقيق أحمد الرفاعى

١٥ ـ المغرب فى حلى المغرب ... ... تحقيق شوقى ضيف

١٦ ـ وفيات الأعيان ... ... لابن خلكان

١٧ ـ ابن الفارض سلطان العاشقين د . محمد مصطفى حلمى

١٨ ـ الحب الالهى فى التصوف
الاسلامى ... ... د . محمد مصطفى حلمى

١٩ ـ التصوف فى الشعر العربى ... عبد الحكيم حسان

٢٠ ـ الأدب الصوفى فى مصر فى القرن
السابع الهجرى ... ... د . على صافى حسين

٢١ ـ بين التصوف والأدب ... ... محمد ابراهيم الجيوشى

٢٢ ـ أبو الحسن الشاذلى ... ... د . محمد عبد الحليم محمود

٢٣ ـ فى الأدب الأندلسى ... ... د . جودت الركابى

٢٤ ـ رابعة العدوية والحياة الروحية
فى الاسلام ... ... طه عبد الباقى سرور

٢٥ ـ أعلام التصوف الاسلامى ... ... طه عبد الباقى سرور

٢٦ ـ التصوف الاسلامى فى الأدب
والأخلاق ... ... د . زكى مبارك

٢٧ ـ ابن عطاءالله السكندرى وتصوفه د . أبو الوفا التفتازانى

٢٨ ـ الانسان الكامل ... ... الجيلى

٢٩ – شرح الرندى على حكم ابن عطاء الله ... ... لابن عباد الرندى

٣٠ – ايقاظ الهمم على شرح الحكم... لابن عجيبة الحسنى

٣١ – التصوف عند المستشرقين ... د . أحمد الشرباصى

٣٢ – وحى القلم ... ... الرافعى

٣٣ – تاريخ الأدب العربى ... ... لبروكلمان

٣٤ – التعرف على مذهب أهل التصوف ... ... للكلاباذى

٣٥ – مطهرة النفوس وروض القلوب المستطاب ... ... للشيخ حسن رضوان

٣٦ – الرسالة القشيرية ... ... للقشيرى

٣٧ – حياة الحيوان الكبرى ... ... للدميرى ...

٣٨ – فتح الرسول ... ... صلوات للميرغنى

٣٩ – شرح الصلوات الادريسية ...

٤٠ – دائرة المعارف الاسلامية ... ...

٤١ – دائرة المعارف البريطانية... ...

٤٢ – دائرة معارف البستانى ... ...

٤٣ – دائرة معارف الشعب ... ...

٤٤ – الموسوعة العربية الميسرة ...

٤٥ – مجلة منبر الاسلام ... ...

٤٦ – تفسير الكشاف للزمخشرى ...

محتويات الكتاب